القضايا الأساسية في الماركسية



سلسلة الاشتراكية

بليخانوف

القضايا الأساسية في الماركسية

ترجمة

حنا عبود



تمهيـــد *

ان الماركسية نظرة عالمية شاملة . انها ، اذ ما عبرنا عنهــا باختصار ، **المادية الحديثة** التي تمثل أعلى مرحلة من مراحـــل تطور تلك **النظرة الى العالم** التي أرسيت أسسها في اليونان القديمة من قبل ديموقريط ، وبشكل خاص من قبل المفكرين الايونيين(١) الذين ســبقوا ذاك الفيلســوف . أما ما كــان يعرف باســـم

---

* قمنا بوضع عنوان لكل فقرة من فقرات الكتاب (المترجم)

(١) الايونيون : نسبة الى أيونيا ، وهي مستعمرة يونانية تقع في وسط الساحل الغربي لآسيا الصغرى ، وكانت هذه المستعمرة على اتصال وثيق بالثقافات الاجنبية في مصر وليبيا وبابل . واشتهرت المدرسة الفلسفية الايونية وذاع صيتها في القرن السادس قبل الميلاد ، وهي عبارة عن مادية جدلية . وقد آمن فلاسفـة هذه المدرسة بأن المادة ، على اختلاف أشكالها ، تؤلف أساس الكون . فطاليس قال ان الماء أساس الكون ، بينما قال هيراكليت بالنار أساسا للكون . أمـــا أناكسيمنس فقال : ان الهواء أصل الكون .. الخ . وبينما كانت المدرسة الايلية تنظر الى الكون نظرة سكونية جامدة ، كان الايونيون يؤمنون بأن كل مظاهـر الطبيعة على اختلافها ليست سوى نتيجة لتغيرات المادة الاساسية . وكل شيء يخضع للتغيير والتطور . فالعالم في تغير دائم ، ولايمكن للمرء ـ على حد قول هيراكليت ـ أن يستحم في النهر مرتين . وقد كان لفلسفة المدرسة الايونيـة تأثير كبير على كثير من مفكري اليونان . وقد تأثر ديموقريط نفسه بهذه الفلسفة ومن أقواله : « ان الحركة عامة وشاملة وكل ما في الكون يخضع للامتداد والحركة حتى النفس » . (المترجم)

« الهيلوزويسم »(٢) فلم يكن سوى مادية ساذجة . ان الفضل الاكبر في تطور المادية المعاصرة يرجع ، ولاشك ، الى كارل ماركس وصديقه فريدريك انجلز . ان المظاهر التاريخية والاقتصادية لهذه النظرة ، أي ما يعرف باسم **« المادية التاريخية »** ومجموعة الافكار المتعلقة بمهمات الاقتصاد السياسي وطريقته ومقولاته ، وبالتطور الاقتصادي **للمجتمع** ، وعلى الاخص **المجتمع الرأسمالي**، هي كلها تقريبا ترجع ، في أسسها ، الى عمل ماركس وانجلز . ذلك ان ما كان موجودا في هذه الحقول من قبل اسلافهما ليس سوى عمل تمهيدي لمادة مجمعة ، هي في الغالب ضخمة وثمينة ، بيد أنها غير منظمة ، ولاتنيرها فكرة أساسية واحدة ، ولذا لم تقدر تقديرا جيدا ، أو لم تستغل أهميتها الحقيقية استغلالا مفيدا .

ان ما قام به أتباع ماركس وانجلز في أوروبا وامريكا ، في هذه الحقول ، ليس سوى شرح جيد ، الى حد ما ، لقضايا نوعية، هي أحيانا على جانب كبير من الاهمية . هذا هو السبب الذي يجعل مصطلح « الماركسية » يستخدم للدلالة فقط على هذين المظهرين من النظرة المادية الحديثة ، ليس فقط بين « الجمهور العام » الذي لم يستوعب حتى الآن النظريات الفلسفية ، بل حتى بين الناس ، في روسيا وكل العالم المتمدن ، الذين يعتبرون

---

(٢) هيلوزويسم : كلمة تتألف من مقطعين : « هيلو » وتعني مادة و «زوي» وتعني حياة ويمكن ترجمتها « المذهب المادي الحيوي » . وقد ظهر هذا المذهب عند بعض فلاسفة الايونيين . ومن حججهم أن المغناطيس يحرك الحديد ، ولولم يكن لهذا المغناطيس « نفس حية » لما استطاع تحريكه . وقد ظهر هذا المذهب عند بعض الفلاسفة المحدثين أيضا مثل سبينوزا ، مثلا ، الذي نادى باتحاد الروح والمادة . (المترجم)

أنفسهم أنصارا مخلصين لماركس وانجلز . وفي مثل هذه الحالات ينظر الى هذين كشيء مستقل عن « المادية الفلسفية » ، وأحيانا كشيء معارض لها* . ومادام هذان المظهران لايمكن الا أن يعلقا في الهواء عندما نبعدهما ابعادا تعسفيا عن المضمون العام للاراء المتشابهة المكونة لاساسهما النظري ، فان أولئك الذين ينفذون تلك العملية المنتزعة انتزاعا ، يشعرون بالحاجة الى « تثبيت » الماركسية مجدداً – ومرة اخرى نقول بتعسف وفي أغلب الاحيان تحت تأثير الطرائق الفلسفية السائدة بين **مفكري البرجوازيــة ومنظريها** – وذلك عن طريق رفدها بهذا الفيلسوف أو ذاك : بكانت مثلا ، أو ماخ أو افيناريوس أو أوزولد ، واخيرا بجوزيف ديتزجن . وبالفعل فقد ظهرت الآراء الفلسفية لديتزجن مستقلة تماما عن التأثيرات البرجوازية ، وهي الى حد ما قريبة من الآراء الفلسفية لماركس وانجلز . ولكن أفكار ماركس وانجلز تملـك ، على أي حال ، مضمونا غنيا وثابتا ، بما لا يدع مجالا للمقارنـة مع غيرها ، ولهذا السبب وحده ، لا يمكن أن « **تكمل** » بتعاليـم ديتزجن ، وانما يجوز أن تصبح **شعبية** ، اذا ما أدخلت اليها .

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية عام ١٩١٠) كان صديقي فريدريك ادلر على حق تماما ، عندما لاحظ ، في مقالة طبعها يوم جنازة انجلز ، أن الاشتراكية ، كما فهمها ماركس وانجلز ، ليست مذهبا اقتصاديا فحسب ، بل نظرة عالمية . وبقدر مانجد هذا التقدير للاشتراكية حقيقيا ، نجد غريبا ذلك الانطباع الذي يتركه ادلر فينا عندما يعتقد أن من الممكن احلال الاساس « الكانتي » محل الاساس المادي لهذا « المذهب العالمي » . فماذا يظن المرء بمذهب عالمي لايرتبط أساسه الفلسفي ببنائه الكلي ؟ كتب انجلز « كنت وماركس الوحيدين تقريبا اللذين خلصــا الديالكتيك الواعي من الفلسفة المثالية الالمانية ، وطبقناه في المفهوم المادي عن الطبيعة والتاريخ » . (انظر مقدمة الطبعة الثالثة لكتابه أنتي دوهرنغ) وهكذا كان مؤسسا الاشتراكية العلمية ، رغم تأكيدات بعض أتباعهما المعاصرين ، ماديين واعيين ، ليس في حقل التاريخ فحسب ، بل في العلم الطبيعي أيضا .

ولم تفهم حتى الآن محاولات لـ « تكملة » ماركس بتوما الاكويني.
ومن الممكن تماما ، رغم المنشور الحديث للبابا ضد العصريين(٣) ،
ان العالم الكاثوليكي ، في وقت ما ، يقدم من وسطه مفكرا قادرا
على انجاز هذا العمل في مجال النظرية(٤) .

---

(١) العصرية (Modernism) اتجاه ظهر في اللاهوت الكاثوليكي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وغاية هذا الاتجاه مواكبة العلم الحديث والتطورات الطارئة وازالة التناقض بين الكاثوليكية ومعطيات العلم . وكان لهذه الدعوة دوي كبير الا أن البابا بيوس العاشر أصدر بيانا بابويا ، كما يشير بليخانوف ، حرم فيه العصرية . (المترجم)

(٢) صحت نبوءة بليخانوف ، فقد ظهرت محاولات عديدة لـ « تكملة » الماركسية والادعاء أن ماركس وتوما الاكويني ، المنظر الاكبر للكاثوليكية ، يدعوان كلاهما الى النضال من أجل تحسين الحياة المادية ، حتى أن بعض الماركسيين ــ كروجيه غارودي مثلا ــ استجاب لهذه الدعوة ، وطالب بفتح حوار جدي مع الكاثوليكية . (المترجم)

١ ـ محاولات لـ « إكمال » الماركسية

والمحاولات التي تشير الى أن الماركسية يجب أن « تكمل » بهذا الفيلسوف أو ذاك ، تحتج عادة بأن ماركس وانجلز لم يشرحا مطلقا آراءهما الفلسفية . هذا التبرير لا يقنع . فحتى لو اعتبرنا أن هذه الآراء الفلسفية لم تشرح بالفعل ، فان ذلك لا يقدم تبريرا منطقيا لاستبدالها بآراء أي مفكر عشوائي ينطلق من وجهة نظر مختلفة اختلافا كليا . ويجب أن نتذكر دائما اننا نملك مادة ادبية كافية تحت تصرفنا لتكوين فكرة صحيحة عن آراء ماركس وانجلز الفلسفية* .

ان هذه الآراء في شكلها الاخير مشروحة شرحا دقيقا كافيا ، وان يكن على شكل جدال ، في الجزء الاول من كتاب انجلز (أنتي دوهرنغ) وثمة ترجمات روسية عديدة لهذا الكتاب . وهناك كتاب رائع للمؤلف نفسه هو كتاب « لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » (وقد قمت بترجمته الى الروسية وأضفت اليه مقدمة وملاحظات توضيحية ، وقام بطباعته لفوفيتش) ، نجد فيه الآراء التي تكون الاساس الفلسفي للماركسية مشروحة شرحا جيداً . وقدم انجلز بسطا مختصرا ولكنه رائع لمذهب اللا أدرية في مقدمته للترجمة الانكليزية لكتاب تطور الاشتراكية العلمية (ترجم الى الالمانية وطبع تحت عنوان

---

* ان فلسفة ماركس وانجلز هي موضوع كتاب و ـ فيريهو وعنوانه (ماركس كفيلسوف) بيرن وليبزغ عام ١٨٩٤ . وان من الصعب تخيل مؤلف اقل اقناعا من هـذا .

المادية التاريخية في صحيفة نيوزيت العددان الاول والثاني ۱۸۹۲ ــ ۱۸۹۳ . أما بالنسبة لماركس فسوف أشير ، لفهم **المظهر الفلسفي** لتعاليمه ، بالدرجة الاولى ، الى شرح **المادية الديالكتيكية** ــ باعتبارها تتميز عن ديالكتيكية هيغل المثالية ــ الذي نجده في المقدمة التي كتبت للمجلد الاول من **رأس المال** ، وسأشير ثانيا الى الملاحظات العديدة العابرة في المجلد نفسه . وتحظى بعض صفحات كتاب **بؤس الفلسفة** بأهمية كبرى (وقد ترجم هذا الكتاب الى الروسية) . وأخيرا ظهرت **عملية تطور الآراء الفلسفية لماركس وانجلز** بوضوح كاف في كتاباتهما المبكرة ، التي أعاد طبعها ف ــ مهرنغ تحت عنوان (من الآثار الادبية لكارل ماركس وفريدريك انجلز ... الخ) في شتاتغورت عام ۱۹۰۲ .

ان الفتى كارل ماركس في أطروحته **« الفرق بين فلسفة الطبيعة عند ديموقريط وفلسفة الطبيعة عند أبيقور »** ، كما في عدة مقالات أعاد طبعها مهرنغ في المجلد الاول من المؤلف المشار اليه سابقا ، يبدو أمامنا مثاليا مخلصا (Pur Sanc) من المدرسة الهيغلية . وفي المقالات التي يشتمل عليها هذا المجلد نفسه ، والتي كانت قد نشرت في الحوليات الفرنسية ــ الالمانية لاول مرة، ظهر لنا ماركس ــ ومثله انجلز الذي اشترك في الحوليات ــ نصيرا عنيدا لـ **« الانسانية »** الفيورباخية* . وهكذا كان كتاب

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية ۱۹۱۰) .

من الجدير بالنسبة لتطور آراء ماركس الفلسفية أن نشير الى رسالته الى فيورباخ في ۲۰ تشرين الثاني ۱۸٤۳ . فقد كتب ماركس محرضا فيورباخ ضد شلنج قائلا : « أنت الشخص الملائم جدا لذلك ، مادمت تعارض شلنج مباشرة . ان فكرة شلنج الفتية ــ وعلينا أن نعترف بكل ماهو جيد في خصمنا ــ لتحقيق مالايملك فيه امكانيات الا التخيل ، ولاطاقة الا العبث ، ولامحرض الا الافيون ،

العائلة المقدسة ، أو نقد الانتقاد النقـدي ، الذي ظهـر في عـام ١٨٤٥ ، وأعيد طبعه في المجلد الثاني من مطبوعات مهرنغ ، يبين لنا كلا من المؤلفين ، أي ماركس وانجلز ، وقـد قاما بخطـوات عديدة هامة في تطوير فلسفة فيورباخ . ويمكن معرفة اتجاه هذا الشرح الذي قاما به من **الاطروحات** الاحدى عشرة عن فيورباخ التي كتبها ماركس في ربيع عام ١٨٤٥ ، وطبعها انجلز كملحـق لكتابه السابق الذكر **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** . وباختصار لانحتاج الى مادة هنا ؛ ان الشيء الوحيـد الذي نحتاجه هو إمكانية استخدام هذه المادة ، المادة ، أي الحاجة الى الدربة الخاصة لفهمها . ان القراء المعاصرين لا يملكون الدربة المطلوبة لذلك الفهم ، وبالتالي لا يعرفون كيف يستخدمونها .

لم الامر هكذا ؟ الامر هكذا لعدة أسباب . واحـد هـذه الاسباب الرئيسية هو أنه حتى الآن هناك ، في الدرجة الاولى ، **معرفة ضئيلة بالفلسفة الهيغلية** ، من الصعب دون هذه المعرفـة

→

ولاعضو الا حافظة مؤنثة ظاهرة قليلا ـ هذه الفكرة الفتية العاملة التي ظـلت فتية وحلما خياليا ، غدت بالنسبة اليك حقيقة وواقعا وقضية جريئة وجدية. ولذلك فان شلنج هو **سلفك الممسوخ** (الكاريكاتوري) ، وبما أن الواقع هو ضد الكاريكاتير ، فان الاخير يجب أن يتلاشى كالضباب . ولهذا السبب اعتبرك خصم شلنج الطبيعي والضروري ، داعيا اياك أن تكون هكذا . ان نضالك ضده هو نضال الفلسفة نفسها ضد الفلسفة التخيلية » . ان هذا يوضح أن ماركس فهم « فكرة شلنج الفتية » حسب معنى المبدأ الاحادي المادي . لكن فيورباخ لم يشارك ماركس هذا الرأي كما يبدو من جوابه . وقد اعتبر أن شلنج في مؤلفاته الاولى « يحول فقط مثالية **الفكرة** الى مثالية **الخيال** ، ويعزو للاشياء قليلا مـن الواقع ، كما يعزو ذلك الى الانا مع فارق وحيد ، وهو أنه يتخذ مظهرا مغايرا ، وأنه يجعل الانا المحدد محل المطلق غير المحدد ، ويضفي على المثالية لونا من وحدة الوجود » (المرجع السابق ص ٤٠٢)

أن نفهم طريقة ماركس ، وفي الدرجة الثانية ، هناك **معرفة** ضئيلة **بتاريخ المادية** ، يؤدي غيابها الى عجز القراء المعاصرين عن تكوين فكرة واضحة عن مذهب **فيورباخ** ، الذي كان السلف المباشر لماركس في حقل الفلسفة ، والذي أظهر إلى حد ما الاساس الفلسفي لما يمكن أن نسميه النظرة العامة لماركس وانجلز .

وتوصف « انسانية » فيورباخ الآن بانها شيء غامض وغير محدد . ان ف ــ إ ــ لانج ، الذي فعل هذا ليبث في « الجمهور العام » ، وفي أوساط المثقفين رأيا مختلفا عن جوهر المادية وتاريخها ، رفض أن يعترف ب « انسانية » فيورباخ على أنها تعاليم مادية . وليس لانج سوى مثال حذا حذوه ، في هذا المجال ، كل من كتب عن فيورباخ في روسيا والاقطار الاخرى تقريبا . يبدو أيضا ان ب ــ أ ــ برلين استسلم لذاك التأثير ، ما دام يصور « انسانية » فيورباخ كنوع من المادية غير « النقية » تماما* . ولا بد لي من الاقرار انني أجهل كيف أخذ فرانز مهرنغ بهذه المسألة ، مع أن معرفته الفلسفية عظيمة وفريدة من نوعها بين الديموقراطيين الاشتراكيين الالمان. لكن من الواضح لي أن ماركس وانجلز رأيا في فيورباخ مفكرا ماديا . ان انجلز يتحدث فعلا عن فيورباخ حديثا متباينا ، بيد أن هذا لا يمنعه في النهاية من أن يقر

---

* انظر كتابه المتع « ألمانيا عشية ثورة ١٨٤٨ » سانبطرسبرغ ١٩٠٦ ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩ .

بالفرضيات الاساسية لفلسفته على أنها فرضيـــات **مادية كليا*** ولكن هذه الفرضيات لايمكن فهمها الا من قبل من يرهق نفسه في دراستهـــا .

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية ۱۹۱۰) كتب انجلز : « ان مجرى تطور فيورباخ هو مجرى تطور أحد أنصار هيغل ـ وان لم يكن في الحقيقة هيغليـــا مستقيما تماما ـ الى المادية ، وهو تطور يتطلب في مرحلة معينة انفصالا تاما عـــن النظام المثالي لسلفه . وبقوة جارفة يتحول فيورباخ أخيرا الى التحقق من أن مايراه هيغل من أسبقية وجود « الفكرة المطلقة » و « المقولات المنطقية » السابقة لوجود العالم ، ليس أكثر من تخلف وهمي للاعتقاد بوجود مخلوق فائق مسبق ، وأدرك أن العالم الحسي الذي ندركه بواسطة احساسنا هو الحقيقة الوحيدة ، وأن شعورنا وتفكيرنا ، مهما ظهرا أرفع من المحسوس ، يظلان من انتاج المادة ، من انتاج عضو في الجسم هو الدماغ . فليست المادة نتاج العقل ، بل العقل نفسه ليس الا النتاج الاعلى للمادة . هذه هي بالطبع المادية النقية » . (لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية) شتوتغارت ۱۹۰۷ .

٢ ـ العلاقة بين الكائن والفكر

أنا عليم أني بقولي هذا أثير دهشة الكثير من قرائي . ولست جزعا من عملي هذا ، فالمفكر القديم كان على حق في قولـــه : « ان الدهشة أم الفلسفة » وحتى لايبقى القارىء عند حــدود الدهشة ، أشير عليه أن يسأل نفسه ما الذي عناه فيورباخ حين كتب وهو يقدم عرضا مختصرا حيويا وأنيقا لكتابه الفلسفي : (Carriculium Vitae) « كان الله فكرتي الاولى ، والعقل فكرتي الثانية ، والانسان فكرتي الثالثة والاخيرة » ؟ وقصدت ان لهذا السؤال ، بالتالي ، جوابا في كلمات فيورباخ التالية « في التناقض بين المادية والروحية . . . يكون الرأس البشري خاضعا للمناقشة . . . وحالما تعرف المادة التي يتألف منها الدماغ ونوعها ، نصل حالا الى رأي واضح حول المادة الاخرى أيضا ، المادة بشـــكل عام*» وفي مكان آخر يقول ان **انتروبولوجيته** ، أي «انسانيته» ، تعني فقط أن الانسان يعزو الى الله ما يشـكل جوهره هــو ، روحه** . ويصل الى حد القول ان ديموقريط لم يتجنب هــذه النقطة « الانتروبولوجية » من أفكاره*** ، فكيف نفهــم كـــل هذا ؟ ان هذا يعني أن فيورباخ جعل « الانسان » نقطة الانفصال في سببيته الفلسفية فقط **لانه** من نقطة الانفصال تلك هفا الـــى تحقيق هدفه ـ وهو تقديم رأي صحيح حول المادة بشـــكل عام ،

---

* « الروحية والمادة » المجلد العاشر ص (١٢٩) .

** المجلد العاشر ص ٢٤٩ .

*** المرجع السابق .

وعلاقتها ب « الروح » . وبالنتيجة فان ما نملكه هنا هو **تدبير طرائقي** ، قيمته مشروطة بأحوال المكان والزمان ، أي بعادات تفكير الالمان في ذلك الزمان ، الالمان المتعلمين أو المثقفين ثقافة بسيطة* وليس بأي نظرة خصوصية** .

ان الشاهد السابق من فيورباخ المتعلق ب «الرأس البشري» يوضح لنا أنه عندما كتب هذه الكلمات ، كانت قضية « نوع مادة

---

* ان فيورباخ نفسه قال بوضوح ان بداية أي فلسفة تتحدد بالحالة السابقة للفكر الفلسفي . انظر المؤلفات الجزء الثاني ص ١٩٣ .

** (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠) يقرر لانج « أن المادي الحقيقي يميل دائما الى توجيه نظرته الى مجمل الطبيعة الخارجية ويعتبر الانسان موجة صغيرة فقط في أوقيانوس الحركة الابدية للمادة . وليست طبيعة الانسان بالنسبة للمادة سوى مثال خاص للفيزيولوجيا العامة ، تماما كما أن الفكر مثال خاص في سلسلة عمليات الحياة الفيزيائية «انظر كتاب : Geschichte des materialism ليبزيغ عام ١٩٠٢ . ولكن تيودور ديزامي ينطلق أيضا في كتابه « قانون المجتمع » **(باريس ١٨٤٣) من طبيعة الانسان (العضوية البشرية) ، وبينما لايشير لانج** عرضا الى ديزامي ، يعده ماركس من بين الشيوعيين الفرنسيين الذين كانت شيوعتهم أكثر علمية من شيوعية كابيه مثلا . « ومثل أوين طور الشيوعيون الفرنسيون العلميون أمثال ديزامي وغاي وآخرين **التعاليم المادية** باعتبارها **التعاليم الانسانية الحقيقية** والقاعدة **المنطقية** للشيوعية » انظر « من الآثار الادبية لكارل ماركس وفريدريك انجلز .... الخ » . وفي الوقت نفسه فان ماركس وانجلز يكتبان مؤلفهما « العائلة المقدسة » الذي سبقت الاشارة اليه ، ويختلفان في تقدير فلسفة فيورباخ . فماركس يسمي مذهب فيورباخ « المادية المتطابقة مع الانسانية » « بما ان **فيورباخ** يمثل المادية في الحقل **النظري** فان الاشتراكية والشيوعية الفرنسية والانكليزية في الميدان العملي تمثلان **المادية** التي تتطابق الان مع الشيوعية » . وبشكل عام اعتبر ماركس المادية أساسا نظريا ضروريا للشيوعية والاشتراكية . أما انجلز ، فعلى العكس : أخذ بالرأي القائل ان فيورباخ قد وضع **حدا للتعارض** بين الروحية والمادية (المرجع السابق ص ٢٣٢ و ص ١٢٦) . وكما رأينا سابقا فانه لم يأخذ بالقول ان تطور فيورباخ كان من المثالية الى المادية .

الدماغ » قد حلّت من قبله بالمعنى المادي « النقي » . وقد وافق على هذا الحل ماركس وانجلز . ان هذا يؤكد أساس فلسفتهما، كما يمكن أن يظهر ذلك بوضوح كامل في مؤلفات انجلز التي استشهدت بها هنا ـ لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية وانتي دوهرنغ . ولهذا السبب علينا أن نقوم بدراسة دقيقة لهذا الحل ؛ وفي عملنا هذا ، سوف ندرس في الوقت نفسه **المظهر الفلسفي للماركسية** .

في مقالة بعنوان « مشروع اطروحة لاصلاح الفلسفة » ظهرت عام ١٨٤٢ ، دعمتها الوقائع ، وكان لها تأثير قوي على ماركس ، قال فيورباخ إن « العلاقة الحقيقية بين الفكر والكائن يمكن أن تصاغ على النحو التالي : الكائن هو **المبتدأ** والفكر هو **الخبر** . الفكر مشروط بالكائن وليس الكائن مشروطا بالفكر . ان الكائن مشروط بنفسه ... له أساسه في ذاته » .

هذا الرأي حول علاقة الكائن بالفكر الذي جعله ماركس وانجلز أساس **الشرح المادي للتاريخ** ، هو حصيلة هامة جدا لنقد المثالية الهيغلية الذي تم بأشكاله الرئيسية على يدي فيورباخ ، هذا النقد يمكن أن نشرح نتائجه بكلمات قليلة .

اعتبر فيورباخ ان فلسفته قد أزالت التناقض بين الكائن والفكر ، التناقض الذي عبر عن ذاته بشكل خاص في « كانت » . وكما أعتقد فيورباخ أنها ازالت ذلك التناقض ، **نجدها استمرت في الحفاظ عليه في هذا الاخير** اي داخل **واحد من عناصره وهو الفكر** . الفكر عند هيغل هو الكائن : « الفكر هو المبتدأ والكائن هو الخبر » . وينتج من ذلك أن هيغل ، والمثالية بشكل عام ، انهى التناقض فقط **باقصاء واحد من عناصره الاساسية** أي

الكائن ، المادة ، الطبيعة . وعلى أي حال ، فان اقصاء واحـــد من العناصر الاساسية في تناقض ما ، لا يعني التخلص من ذلـك قبل المثال (Ideal) ليس سوى ترجمة عقلية للمذهب اللاهوتي التناقض . « ان مذهب هيغل القائل ان الواقع هــو اقرار مــن القائل ان الطبيعة صنع الله ـ والواقع او المادة من صنع كـائن مجرد ، غير مادي » . وهذا لا ينطبق فقط على مثالية هيغـل المطلقة ، بل ان مثالية « كانت » الاصولية(٥) ، التي يتلقى العالم المحيط ـ طبقا لهذه المثالية ـ قوانينه من العقل بدلا من أن يتلقى العقل قوانينه من العالم المحيط به ، هي أيضا قريبة جدا من المفهوم اللاهوتي القائل ان قوانين العالم فرضت عليــه من قبل العقــل الالهي . **ان المثالية لم تقم الوحدة بين الكائن والفكر** ، وليـس بامكانها ان تقيمها ؛ **انها تمزق هذه الوحدة الى شطرين** . ان نقطة الانطلاق للفلسفة المثالية ـ وهي الانا باعتبارها المبدأ الفلســفي الاساسي ـ خاطئة خطأ كليا . فليست « الانا » هي التي يجب أن تكون نقطة الانطلاق لفلسفة أصيلة، وانما « الانا» و « الانت » . ان نقطة الانطلاق هذه تجعل من الممكن الوصول الى فهم صحيح للعلاقة بين الكائن والفكر ، بين الموضوع والذات . ف « أنا » هي دائما «أنا» بالنسبة لنفسي وفي الوقت نفسه « أنا » تمثل بالنسبة للآخرين « أنت » . « الأنا » هي **الذات** ، وفي الوقت نفسه هــي **الموضوع** أيضا ، ويجب أن نلاحظ في الوقت نفسه ، انني لست كائنا مجردا تتعامل معه الفلسفة المثالية . انني كائن حقيقي ، جسدي يرتبط **بجوهري** ؛ وفوق ذلك فان جسدي ، **ككل** ، هو

---

(٥) Trancendental Idealism المثاليةالاصولية أي التي ترجع الى الاصول الاولية وقد ترجمنا الترنسندنتال بالاصولية ، ولم نأخذ ببقية الترجمات كالمتعالية أو التجريدية أو التنزيهية ، معتمدين في ذلك على الاشتقاق اللغـوي والمعنى الفلسفي الذي رمى اليه « كانت » . (المترجم)

« أنا » الخاصة بي ، هو جوهري الاصلي . ان ذلك الفكر ليس كائنا مجردا ، بينما هذا الجسد كائن حقيقي . وهكذا يكون على العكس مما يؤكده المثاليون ، فالكائن المادي الحقيقي يثبت أنه هو المبتدأ ، بينما الفكر هو الخبر . وفي هذا يكمن الحل الممكن للتناقض بين الكائن والفكر ، هذا التناقض الذي جهدت المثالية في التنقيب عن حله دون طائل . فلا عنصر من عنصري التناقض **أزيح** ، بل جرى **الاحتفاظ** بكليهما فتجلت وحدتهما الحقيقية . « ان ما هو بالنسبة الي فعل غير حسي وغير مادي بل روحي خالص ، هو في حد ذاته فعل حسي ومادي وموضوعي* » .

فلنلاحظ ان فيورباخ في قوله هذا **يقف قريبا من سبينوزا** الذي كان قد شرح له فلسفته بتعاطف كبير في الوقت الذي كان فيه انفصاله عن المثالية قد تحدد ، أي عندما كان يكتب مؤلفه عن تاريخ الفلسفة الحديثة** . وقد ضمن كتابه (Grundsatze) ملاحظة ذكية وهي أن **وحدة الوجود** عبارة عن مادية لاهوتية ، هي رفض للاهوت ، ولكنه رفض يعتمد أيضا على موقف لاهوتي. هذا الخلط في **المادية واللاهوت** هو أساس اضطراب سبينوزا ، هذا الاضطراب الذي لم يمنعه من أن يثبت « تعبيرا فلسفيا

---

* المرجع السابق جزء ٢ صفحة ٣٥٠ .

** (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠)

في ذلك الزمن كتب فيورباخ هذه الاسطر النفيسة « رغم كل المعارضة للواقعية العملية مما يسمى الحسية والمادية الانكليزية والفرنسية — الواقعية التي ترفض كل تأمل — والروح التي تشمل **الجميع** عند سبينوزا ، نجد لهذه المذاهب أساسها **المطلق** في الرأي الذي عبر به سبينوزا ، كميتافيزيقي ، عن المادة في فرضية شهيرة وهي الفرضية التي تقول : « المادة هي رفض الله » . انظر (ك — غرون. لودفيغ فيورباخ الصفحة ٣٢٤ والصفحة ٣٢٥) .

صحيحا ـ في ذلك الوقت ـ للاتجاه المادي في الازمنة الحديثة » .
وهذا هو السبب الذي جعل فيورباخ يدعو سبينوزا « موسى الماديين والمفكرين الاحرار المحدثين* » . في عام ١٨٤٧ تساءل فيورباخ : « ماهذا الذي دعاه سبينوزا ـ تحت اختبار دقيق ـ المادة المكونة (Substance) حسب مصطلح المنطق أو الميتافيزيك ، أو الله حسب مصطلح اللاهوت ؟ » وأجاب عن هذا السؤال بشكل مقولة : « لاشيء آخر سوى الطبيعة » . وقد رأى عقبة سبينوزا الرئيسية قائمة في واقع ان « جوهر الطبيعة الحسي والمعادي للاهوت يجمع مظهر الكائن الميتافيزيكي المجرد ». ووضع سبينوزا نهاية لثنائية الله والطبيعة بتصريحه ان أفعال الطبيعة هي نفسها أفعال الله . ولانه اعتبر أفعال الطبيعة هي نفسها أفعال الله ، ظل هذا الاخير عند سبينوزا ، كائنا متميزا عن الطبيعة ، ولكنه يشكل أساسها . لقد اعتبر الله كمبتدأ واعتبر الطبيعة خبرا له . ان أي فلسفة حررت نفسها من التقاليد اللاهوتية يجب ان تقصي هذه العقبة الكؤود في فلسفة سبينوزا ، هذه الفلسفة التي هي صدى لتلك العقبة . صاح فيورباخ : « فليلغ هذا التناقض ان كلمة السر ليست (Deus Sive Natura) وانما (aut deus aut Natura)) هي كلمة السر » وهكذا أثبتت « انسانية » فيورباخ انها ليست شيئا آخر سوى سبينوزية تخلصت من حليتها اللاهوتية ، وهذا النوع من جهة نظر السبينوزية الذي حرره فيورباخ من الحلية اللاهوتية ، هو ما وافق عليه ماركس وانجلز عندما اصطدما بالمثالية .

وعلى أي حال فان تخلص السبينوزية من حليتها معناه

---

* المرجع السابق الجزء الثاني ص ٢٩١ .

** المرجع السابق الجزء الثاني ص ٣٥٠ .

الكشف عن مضمونها الحقيقي **والمادي** . وبالتالي فان سبينوزية ماركس وانجلز هي في الحقيقة **المادية المعاصرة*** .

وفوق ذلك ليس الفكر **سبب** الكائن ، بـل **أثـر** منـه ، أو بالاحرى **خاصة** من خصائصه . يقول فيورباخ : (Folge und Eigenschaft) ، انا أشعر وأفكر ليس كذات تعارض الموضوع ، بل **كذات وموضوع** معا ، ككائن حقيقي مادي . « ليس الموضوع بالنسبة لي شيئا محسوسا فقط ، بل انـه القـاعدة والشرط الضروري لاحساسي » . ليس العالم الموضوعي من دوني فقط ، انه في داخلي أيضا في جلدي** . ان الانسان جزء من الطبيعة ، جزء من الكائن ، فلامجال لاي تناقض بين فكرة وبين كينونته . المكان والزمان يوجدان فقط كشكلين للفكر ، انهما شكلان للكائـن أيضا ، شكلان لتأملاتي . وهما هكذا فقط لاني أنا نفسي مخلوق يعيش في المكان والزمان ، ولاني أحس واشعر كمخلوق . وبشكل عام : ان قوانين الكائن هي في الوقت نفسه قوانين الفكر .

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠) .

في العائلة المقدسة يلاحظ ماركس أن « كتاب تاريخ الفلسفة لهيغل يمثـل المادية الفرنسية وتحقيق المادة الاصولية (Substance) عند سبينوزا » .

** (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠) .

كيف نعرف العالم **الخارجي** ؟ كيف نعرف العالم الداخلي ؟ نحن لا نملك وسائل لانفسنا أكثر مما نملك للاخرين . فهل أعرف شيئا عن نفسي دون وساطـة احساساتي ؟ وهل أوجد ان لم أوجد خارج نفسي ؟ ولكن كيف أعرف اني موجود؟ كيف أعرف اني موجود ليس خارج نفسي ، بل في احساساتي ، في واقعي الفعلي، ما لم أفهم نفسي من خلال احساساتي .

راجع (Feuerbach's Nachlassen Aphorismen) في كتاب غرون الجزء الثاني صفحة (٣١١) .

هذا ماقاله فيورباخ . والشيء نفسه ، وان بكلمات مختلفة، قاله انجلز في مجادلته مع دوهرنغ* . ويظهر لنا هذا كم أصبح هذا الجزء الهام في فلسفة فيورباخ جزءا شاملا في فلسفة ماركس وانجلز .

لو أن ماركس ابتدأ يوضح تفسيره المادي للتاريخ بنقد **فلسفة الحق عند هيغل** ، لفعل هذا فقط لان فيورباخ قد إكمل نقده **لفلسفة هيغل التأملية** .

وحتى عندما ينقد ماركس فيورباخ في أطروحاته ، فانه يطور الافكار السابقة ويزيد عليها . ونجد هنا مثالا في مجال « نظرية المعرفة » . قبل **التفكير** بالموضوع ، بالنسبة لفيورباخ ، **يجرب** الانسان **عمل** الفكر **في نفسه ، يتأمله ويشعر به** .

وكانت هذه الكلمات في ذهن ماركس عندما كتب : « ان العيب الرئيسي في المادية القائمة حتى الآن – بما فيها مادية فيورباخ – هو أن الشيء (Gegenstand) ، الواقع ، المحسوس ، يدرك فقط على شكل موضوع ، أو تأمل ، وليس كممارسة ونشاط حسي بشري غير ذاتي » . ويستمر ماركس فيقول أن

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠)

ألفت انتباه القارىء بشكل خاص الى فكرة انجلز في أنتي دوهرنغ ، وهي أن قوانين الطبيعة الخارجية والقوانين التي تتحكم بالانسان ككائن روحي وجسدي هي « نوعان من القوانين التي يمكننا فصل الواحد عن الآخر ، ولكن في الفكر فقط وليس في الواقع » (ص ١٥٧) . هذا هو نفسه **منهب وحدة الكائن والفكر** ، وحدة **الموضوع والذات** . وفيما يتعلق بالمكان والزمان انظر الفصل الخامس من الجزء الاول من الكتاب **المذكور سابقا . يظهر هذا الفصل** أنه بالنسبة **لانجلز** ، كما بالنسبة لفيورباخ ، ليس المكان والزمان شكلين للتأمل فقط ، بل هما شكلان للكينونة أيضا .

هذا العيب توضحه حقيقة ان فيورباخ في كتابه **جوهر المسيحية** يعتبر النشاط النظري وحده فعالية بشرية أصيلة . ان هذا طبقا لفيورباخ يعني ، بكلمات أخرى ، أن « الانا » الخاصة بنا تدرك **الموضوع** عن طريق **الانغماس في فعلها** * . ويعارض ماركس ذلك بقوله : ان « أنا » الخاصة بنا تدرك الموضوع **في الوقت نفسه الذي تفعل** في ذلك الموضوع » . ان فكرة ماركس صحيحة كليا : كما قال فاوست : « في البدء كان العمل »

... وبالطبع يمكن الاعتراض في الدفاع عن فيورباخ أنه في عملية **فعلنا** في الموضوعات ندرك خصائصها فقط بالمقدار الذي تفعله هي من جهتها فينا . وفي كلا الحالين يسبق الاحساس الفكر ، بل الحقيقة ان الانسان يندفع في التفكير بشكل الموضوعات ، وعندئذ فقط نفكر فيها . لكن هذا الشيء لم يرفضه ماركس . فبالنسبة اليه ان أساس المادة ليس من المحتم ان يسبق الاحساس الفكر ، بل الحقيقة ان الانسان يندفع في التفكير بشكل رئيسي عن طريق الاحساسات التي عاناها في عملية فعله في العالم الخارجي . ومادام هذا الفعل في العالم الخارجي يفرض على الانسان الصراع من أجل الوجود ، فان نظرية المعرفة عند ماركس ترتبط بنظريته المادية في تاريخ الحضارة الانسانية . وليس عبثا أن المفكر الذي وضع ضد فيورباخ الاطروحات التي نناقشها هنا قد كتب في مؤلفه **« رأس المال »** : « ان الانسان بعمله في العالم الخارجي وتغييره لهذا العالم يغير في الوقت نفسه من طبيعته الخاصة » . ان هذه الفرضية تفصح بوضوح عن معناها العميق فقط في ضوء نظرية ماركس في المعرفة . وسوف

---

* يقول : Dem denken geht des slin uoran, ehe du die Dualitat denks du die Dualiat المؤلفات المجلد الثاني صفحة ٢٥٣ .

نرى كيف أثبت تاريخ التطور الثقافي هذه النظرية ، بل ان علم اللغة أثبتها أيضا. ويجب الاقرار ان نظرية ماركس المعرفية تحدرت مباشرة من نظرية فيورباخ ، أو اذا أردت حديثا خاصا ، انها نظرية فيورباخ المعرفية بعد أن عمقها وصححها كارل ماركس .

وسوف أضيف ، اضافة عابرة ، ان هذا التصحيح قدمته «روح العصر » . والنضال لاختبار التداخل بين الموضوع والذات من وجهة النظر التي فيها تبدو الذات في دور **فعال ،** هو نتيجة الطريقة العامة للفترة التي فيها اتخذ المفهوم العالمي لماركس وانجلز شكله* . وكانت ثورة ١٨٤٨ في منتصف تلك الفترة .

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠)

قال فيورباخ في فلسفته : « ان فلسفتي لا يمكن أن تعالج باستيعاب عن طريق القلم ، فلا مجال لها على القرطاس » . ولهذا التصريح أهميته بالنسبة اليه فقط . واستمر يقول : « ما دامت الحقيقة بالنسبة لها (أي لفلسفته) ليست تلك التي تجول في الفكر ، بل تلك التي تمكن رؤيتها وسماعها واحساسها » (راجع كتاب غرون الجزء الثاني صفحة ٣٠٦) .

٣ ـ حول وحدة الذات والموضوع

كان مذهب وحدة الذات والموضوع ، الفكر والكائن ، الذي شارك فيه فيورباخ وماركس وانجلز بنصيب متساو ، مذهبا يعتنقه معظم الماديين المشهورين في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وقد أظهرت في مكان آخر* ان لامتري وديدرو ــ كل حسب نمطه الخاص ــ توصلا الى مفهوم عالمي كان « ممهوراً بالسبينوزية » ، أي بدون حلية لاهوتية تفسد مضمونه الحقيقي . ومن اليسير ــ طالما نتحدث عن وحدة الذات والموضوع ــ ان نبين ان هوبز أيضا وقف موقفا قريبا جدا من موقف سبينوزا . وهذا ما يبعدنا كثيرا عن موضوعنا ، في الوقت الذي لسنا فيه مضطرين جدا الى هذا الابتعاد . ومما له فائدة قصوى للقارىء أن كل عالم طبيعي اليوم يبحث ولو قليلا في قضية علاقة الفكر بالكائن ، يصل الى مذهب وحدتهما الذي وجدناه عند فيورباخ .

عندما كتب هكسلي الكلمات التالية : « لأحد بالتأكيد يدرك حقائق القضية ، فالشكوك اليوم تدور حول ان جذور علم النفس تعود الى فيزيولوجيا الجهاز العصبي » وتابع القول ان عمليات العقل « هي وظائف الدماغ** » ، كان يعبر تماما عما قاله فيورباخ ، وبهذه الكلمات فقط ربط المفهومات التي كانت أقل وضوحا . وبالضبط بسبب هذه المفهومات المرتبطة بتلك الكلمات كانت أقل وضوحا مما هي عند فيورباخ ، حيث اراد ان

---

* انظر مقالتنا (برنشتاين والمادية) .

** هيوم ، حياته وفلسفته ص ٨٠ .

يربط النظرة المشار إليها سابقا ، بريبية هيوم الفلسفية* .

وفي الطريق نفسه نجد أن « وحدانية » هيغل ، التي خلقت مثل هذه الاثارة ، ليست شيئا آخر سوى مذهب مادي خالص لوحدة الذات والموضوع ـ قريب في جوهره من مذهب فيورباخ . ان هيغل على أي حال ، ضئيل التمكن من تاريخ المادية . وهذا ماجعله يعتبر من الضرورة الصراع ضد الاعتماد على « جانب واحد » ؛ فعليه أن ينهمك في دراسة نظرية المعرفة بالشكل الذي نجده عنده فيورباخ وماركس ، وهذا شيء يحميه من عدة سقطات وافتراضات أحادية الجانب تجعل من السهل على خصومه ان يشنوا نضالا ضده في الميادين الفلسفية .

وخطوة قريبة جدا من المادية الحديثة ـ التي تعزى لفيورباخ وماركس وانجلز ـ خطاها اوغست فوريل في العديد من مؤلفاته كما في صحيفة (Gehirn und Seele) مثلا ، حيث ألقى هذه المقالة في المؤتمر السادس والستين لعلماء الطبيعة والاطباء الالمان المنعقد في فيينا (٢٦ ايلول ١٨٩٤)** .

وفي عدة مواضع لايعبر فوريل عن أفكار مشابهة لافكار فيورباخ فقط ـ وهذا مايثير العجب ـ بل يرتب مناقشاته كما فعل فيورباخ تماما . وعند فوريل ، كل نهار جديد يأتينا ببراهين مقنعة أن علم النفس وفيزيولوجيا الدماغ عبارة عن طريقتين فقط للنظر في « الشيء الواحد نفسه » . والقارىء لاينسى بالطبع نظرة فيورباخ المطابقة ، التي عرضتها من قبل والتي تعالج المسألة نفسها . ويمكن أن نلحق بهذه النظرية التقرير التالي : يقول فيورباخ « أنا موضوع بسيكولوجي بالنسبة لنفسي ولكني موضوع

---

* المرجع السابق ص ٨٢ .

** انظر ايضا الفصل الثالث من كتابه (حياة الاعصاب ونظامها)

فيزيولوجي بالنسبة للاخرين » . وفي التحليل الاخير عند فوريل يهبط الى افتراض ان الوعي هو « انعكاس داخلي لفعالية النخاع الشوكي » . هذه النظرة هي منذ البدء نظرة مادية .

وفي معارضة الماديين ، يؤكد المثاليون والكانتيون من كل الاصناف والانواع ان ماندركه نحن ليس الا المظهر **العقلي** للظواهر التي تحدث عنها فوريل وفيورباخ . وقد صاغ شلنج بمهارة هذا الاعتراض ، وفيه يقول ان « الروح هي دائما جزيرة لايستطيع المرء أن يصلها من ناحية اليابسة الا بواسطة قفزة » . وقد كان فوريل مدركا لهذا ، وقد قدم برهانا مقنعا وهو ان العلم سيكون مستحيلا اذا نحن وطدنا عقولنا الا نترك حدود هذه الجزيرة . يقول : « ان لاي امرىء بسيكولوجية ذاتية خاصة فقط ... وسنكون مضطرين الى الشك في وجود العالم الخارجي والناس الآخرين » .

ان مثل هذا الشك هو في حد ذاته سخيف : « ان النتائج التي توصل اليها القياس واستدلال العلوم الطبيعية ، ومقارنة الشهادة التي تقدمها حواسنا الخمس ، تثبت لنا وجود العالم

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠) .

نشر تشيرنيشفسكي مقالة بعد عودته من المنفى عنوانها « سمعة المعرفة البشرية » يثبت فيها بذكاء ان الانسان الذي يشك في وجود العالم الخارجي يجب أن يشك أيضافي حقيقة وجوده هو.. وقد كان تشيرنيشفسكي نصيرا مخلصا لفيورباخ دائما ويمكن أن نعبر عن الفكرة الاساسية لمقالته بالكلمات التالية من فيورباخ : « أنا لا أختلف عن الاشياء والمخلوقات عن طريق استثناء نفسي لاني أميز نفسي عنهم ، **بل أميز نفسي لاني اختلف عنهم فيزيائيا وعضويا وفي الواقع ايضا.** ان الوعي يفترض مسبقا وجود كائن ، وهو فقط كائن واع ، كما يتمثل ويتحقق في العقل » .

الخارجي ، ووجود الناس الآخرين وبسيكولوجيتهم . كما تثبت لنا وجود بسيكولوجيا مقارنة وبسيكولوجية الحيوان . وأخيرا تكون بسيكولوجيتنا مبهمة ومليئة بالتناقض اذا نحن اعتبرناها في عزلة عن فعاليات دماغنا ؛ ويبدو للوهلة الاولى تناقض في قانون حفظ الطاقة » .

ولم يكتف فيورباخ بكشف التناقضات التي تحيط حتما بأولئك الذين يرفضون الموقف المادي فقط ، بل يبين كيف يصل هؤلاء المثاليون الى « جزيرتهم » . يقول : « أنا هو « الانا » بالنسبة لنفسي ولكني « أنت » بالنسبة للآخرين . بيد أن « الأنا » هي مثل هذه « الانا » فقط ككائن حسي (أي مادي ـ ج ، بليخانوف) . ان الذهن المجرد يعزل هذا الكائن نفسه كمادة أصلية ، الذرة ، الانا ، الله ؛ هذا هو السبب في أن الارتباط بين الكائن لنفسه والكائن للاخرين هو أمر قسري . وماافكر فيه كاحساس فائق ، أفكر فيه دون أي ارتباط ، وخارج أي ارتباط . هذا الاعتبار الهام مصحوب بتحليل لعملية التجريد التي قادت الى ظهور المنطلق الهيغلي كمذهب انطولوجي » .

ولأن فيورباخ يملك معلومات تزودنا بالاثنولوجيا(٦) **المعاصرة** ، فانه قادر ان يضيف ان المثالية الفلسفية تحدرت ، بالمعنى التاريخي ، من **الارواحية(٧)** التي كانت عقيدة الشعوب البدائية.

---

(٦) علم العروق البشرية (المترجم)

(٧) الارواحية (Animism) وهي عقيدة الشعوب البدائية القائلة ان لكل شيء روحا حتى الكون نفسه . وقد عزفنا عن ترجمتها بالروحية لئلا تلتبس بالمذهب الروحي الحديث . (المترجم)

وقد أشار الى هذه النقطة من قبل ادوار تايلور* . وقد شرع بعض مؤرخي الفلسفة يأخذون هذه الناحية بعين الاعتبار جزئيا ، مع انها كانت لوقت ماطرفة أكثر منها حقيقية من تاريخ الثقافة ، وكان لها أهمية نظرية معرفية قيمة جدا .

ولم تكن أفكار فيورباخ ومناقشاته معروفة تماما من قبل ماركس وانجلز ، ولم تحظ باهتمام بالغ من قبلهما فقط ، بل ساعدت الى حد بعيد في تطوير نظرتهما العالمية . واذا كان انجلز قد احتقر احتقارا شديدا الفلسفة الالمانية بعيد فيورباخ ، فذلك لان هذه الفلسفة ــ في رأيه ــ قد أحيت الاخطاء الفلسفية التي كشفها فيورباخ من قبل . وفي الحقيقة كانت هذه هي القضية . فلا احد من النقاد المتأخرين للمادية قدم مناقشة واحدة لم يقم فيورباخ نفسه يدحضها ، أودحضها قبله الماديون الفرنسيون** . أما بالنسبة « لنقاد ماركس » ــ كبرنشتاين وشميدت وكروس وأضرابهم ــ فيبدو أن انتقائية الفلسفة الالمانية المعاصرة ، التي

---

* « الحضارة البدائية » باريس ١٨٧٦ المجلد الثاني ص ١٤٣ . وتجدر الملاحظة أن فيورباخ قام بحدس لوذعي فيما يتعلق بهذه القضية . قال : ان مفهوم الموضوع ليس في الاساس سوى مفهوم « أنا » أخرى ، فالانسان يستوعب الاشياء في طفولته كطبيعة غير قسرية ، لذلك فان مفهوم الموضوع يعرف من مفهوم « الانت » المقابلة لـ « الانا » .

انظر في ذلك المجلد الثاني من المرجع المذكور آنفا الصفحتان ٣٢١ ــ ٣٢٢ .

** (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠) .

يطلق فيورباخ اسم (المجترين) على أولئك المفكرين الذين حاولوا انعاش الفلسفة المهجورة . ولسوء الحظ أن مثل هؤلاء موفورون جدا في زمننا ، وقد انتجوا في ذلك أدبا غزيرا في المانيا ، والى حد ما في فرنسا . وقد بدؤوا يتكاثرون في روسيا أيضا .

هي أشبه بحساء المعدمين قد وضعت في صحن جديد ، يلتهمون منه ، ويلاحظون ان انجلز لم ير من المناسب ان يعلن عن نفسه فيه ، فتخيلوا انه « تحاشى » أي تحليل للنقاش الذي طالمااعتبره عقيما لايستحق شيئا مطلقا . انها قصة قديمة ، ولكنها تبدو دائما جديدة . ان الفئران لاتكف عن التفكير ان الهرة أقوى بكثير من الاسد .

في تمييز التشابه الشديد ـ والتطابق أيضا ـ في آراءفيورباخ وفوريل ، سوف نلاحظ أنه اذا كان الاخير أحذق بالعلوم الطبيعية ، فان فيورباخ قد استفاد من معرفته العميقةبالفلسفة. وهذا هو سبب اقتراف فوريل لاخطاء لانجدها عند فيورباخ . ان فوريل يدعو نظريته : النظرية الفيزيولوجية ـ النفسية في التطابق . ولااعتراض له أهميته يمكن أن يعلق على هذا ، لان كل المصطلحات تقليد وعرف . ومادامت نظرية التطابق شكلت أساس الفلسفة المثالية المطلقة ، فان فوريل يسير قدما الىالامام ويعلن بشجاعة وبساطة عن أن نظريته نظرية مادية . ويبدو أنه حافظ على بعض الميول ضد المادية ، ولهذا اختار اسما آخر . وهذا هو السبب الذي جعلني أفكر أن من الضروري أن نلاحظأن التطابق بالمعنى الفوريلي ليس شيئا بالمقارنة مع التطابق بالمعنى المثالي .

ان « نقاد ماركس » لم يعرفوا حتى هذا . ففي مجادلة شميدت معي نسب الى الماديين المذهب المثالي في التطابق . وفي الواقع ان المادية تقر بوحدة الذات والموضوع وليس بتطابقهما . وقد وضح فيورباخ هذا جيدا .

بالنسبة لفيورباخ يكون لتطابق الذات والموضوع ، الفكر

والكائن ، معنى فقط عندما نتخذ الانسان أساسا لتلك الوحدة . وفي هذا نوع خاص من العمق « الانساني » . ومعظم تلامذة فيورباخ لم يجدوا ضرورة في أن يفكروا كيف يستخدم الانسان كاساس لوحدة المتناقضات التي أشرنا اليها . والحقيقة أن فيورباخ فهم القضية هكذا : « فقط عندما لايكون الفكر ذاتا لنفسه، وانما يكون خبرا للكائن الحقيقي (أي المادي — ج ، بينمانوف) فلن يكون التفكير شيئا منفصلا عن الكائن » . والمسألة الآن هي : أين وفي أي الانظمة الفلسفية يكون الفكر « ذاتا لذاته » ، أي شيئا مستقلا عن الوجود البدني للانسان المفكر ؟. والجواب واضح : في الانظمة الفلسفية المثالية . فالمثاليون يحولون الفكر أولا الى جوهر قائم بذاته ، مستقل عن الانسان (الذات لذاتها) ، وعندئذ يؤكدون أن التناقضات بين الكائن والفكر تنحل في ذاك الجوهر ، لسبب بسيط وهو أن الكائن المستقل والمنفصل خاص بجوهر المادة المستقلة* . في الحقيقة نجد أن التناقض ينحل في ذاك الجوهر . وفي تلك الحالة ، ماهو ذاك الجوهر ؟ انه الفكر ، وهذا الفكر يوجد مستقلا عن أي شيء آخر . مثل هذا الحل للتناقض هو حل شكلي خالص يتحقق ، كما سبق وأشرنا ، بانهاء أحد عنصريه فقط ، وبالتحديد ، بانهاء الكائن كشيء مستقل عن الفكر . يثبت الكائن على أنه خاصة بسيطة من خصائص الفكر ، بحيث أننا عندما نقول ان موضوعا محددا موجود ، فاننا

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠) .

يعمل ماخ واتباعه بالطريقة نفسها تماما . فأولا يحولون **الاحساس** الى جوهر مستقل ، غير مرتبط **بالجسد** الذي يحس — جوهر يسمونه عنصرا ، وعندئذ يعلنون أن هذا الجوهر يتضمن حلا للتناقض بين الكائن والفكر ، بين الذات والموضوع . ان هذا يشير الى فداحة الخطأ الذي اقترفه اولئك الذين أكدوا قرابة ماخ من ماركس .

نعني أنه موجود فقط في فكرنا . هكذا يفهم شلنج المادة ، على سبيل المثال . فبالنسبة اليه ، الفكر هو المبدأ المطلق الذي يتبعه بالضرورة العالم الحقيقي ، أي الطبيعة والروح « المحدودة » . ولكن كيف يتبع العالم الحقيقي الفكر ؟ ماذا كان يعني بوجود العالم الحقيقي ؟ لاشيء الا الوجود في الفكر . بالنسبة لشلنج كان الكون عبارة عن تأمل ذاتي للروح المطلقة . ونجد الشيء نفسه لدى هيغل . أما فيورباخ فلم يكن مرتاحا لهذا الحل الشكلي الخالص للتناقض بين الفكر والكائن . وأشار الى انه لايوجد ـ ولايمكن ان يوجد ـ **فكر مستقل عن الانسان ،** أي عن المخلوق المادي الحقيقي . ان الفكرة عبارة عن فعالية الدماغ . واذااستعرنا لغة فيورباخ قلنا : « ولكن الدماغ هو عضو التفكير فقط مادام مرتبطا بالجسد البشري وبالرأس البشري » .

نرى الان بأي معنى يعتبر فيورباخ الانسان أساس وحدة الكائن والفكر . ان الانسان أساس الفكر بمعنى أنه ليس سوى كائن مادي يملك قابلية التفكير . ومادام الكائن على هذا النحو ، فان من الواضح أننا لم نقض على أي من عنصري التناقض ـ لا الكائن ولاالفكر ، لا « المادة » ولا « الروح » ، لاالذات ولاالموضوع . انهما مجتمعان في الانسان كموضوع وذات . يقول فيورباخ « أنا موجود وأنا أفكر كموضوع وذات فقط » .

أن أكون لايعني أن أوجد في الفكرة . وفي هذا المجال نجد فلسفة فيورباخ أكثر وضوحا من فلسفة ديتزجن . وكما وضع فيورباخ القضية : « اثبات ان الشيء موجود يعني اثبات انه ليس شيئا ذاك الذي يرجو في الفكرة فقط » . وهذا أمر صحيح كليا ولكنه يعني وحدة الفكر والكائن لاتعني ـ ولايمكن أن تعني ـ تطابقهما الذاتي .

ان هذه السمة من أهم السمات التي تميز المادية عن المثالية .

٤ ــ دور فيورباخ

عندما يقول الناس أن ماركس وانجلز كانا لفترة ما من أتباع فيورباخ ، يستدل من ذلك غالبا أنه عندما انتهت تلك الفترة ، تغيرت نظرة ماركس وانجلز الى العالم تغيرا ملحوظا ، وأصبحت تختلف اختلافا كليا عن نظرة فيورباخ . وهكذا نظر الى القضية كارل ديهل ، الذي يجد أن تأثير فيورباخ على ماركس هو تأثير مبالغ فيه عادة مبالغة كبيرة . وهذا خطأ خطير . فعندما توقف ماركس وانجلز عن أن يكونا من أتباع فيورباخ ، لم يتوقفا عن مشاركته بجزء واضح من آرائه الفلسفية . وخير دليل على هذا هو تلك الاطروحات التي كتبها ماركس في نقد فيورباخ . ان الاطروحات ليست أبدا ابطالا للفرضيات الاساسية في فلسفة فيورباخ ، انها فقط تصحيح لها ، ودعوة ــ وهذا هو أهم ما في الاطروحات ــ الى تطبيق مستمر في شرح الواقع المحيط بالانسان ، وبشكل خاص المحيط بفعاليته الخاصة . ليس الفكر هو الذي يحدد الكائن ، بل ان الكائن هو الذي يحدد الفكر . تلك هي الفكرة الاساسية في كل فلسفة فيورباخ . وقد جعل ماركس وانجلز تلك الفكرة أساسا للتفسير المادي للتاريخ . ان مادية ماركس وانجلز مذهب أكثر تطورا من مادية فيورباخ . ان الآراء المادية لماركس وانجلز تطورت ، على أي حال ، في الاتجاه الذي أشار اليه المنطق الداخلي لفلسفة فيورباخ . وهذا هو السبب في أن تلك الاراء لم تكن دائما واضحة تماما ــ وخصوصا في مظاهرها الفلسفية ــ لاولئك الذين لايتعبون في استخلاص اي جزء من

اجزاء الفلسفة الفيورباخية الذي أصبح مندمجا في النظرة العالمية لمؤسسي الاشتراكية العلمية . واذا قابل القارىء أيا من الذين يعملون في قضية ايجاد « البديل الفلسفي » للمادية التاريخية ، فانه سيتأكد أن هذا الانسان الحكيم يعاني من نقص كبير في المجال الذي أشرت اليه آنفا .

ولكن دعنا الآن نرجع الى الموضوع . تغلب ماركس في أطروحته الثالثة عن فيورباخ على أعظم صعوبة لكل القضايا التي كان يحلها في « الممارسة » التاريخية للانسان الاجتماعي ، بمساعدة المفهوم الصحيح عن وحدة الذات والموضوع الذي طوره فيورباخ. ونقرأ في الاطروحة : ان المذهب المادي الذي يؤمن بأن الناس نتاج الظروف المعيشية والتنشئة .... ينسى أن الناس هم الذين يغيرون الظروف ، وأن المربي نفسه يحتاج الى تربية » . فاذا ماحلت هذه القضية فان « سر » التفسير المادي للتاريخ ينكشف ويظهر . بيد أن فيورباخ كان عاجزا عن حلها . ان فيورباخ في التاريخ — مثله مثل ماديي القرن الثامن عشر الفرنسيين الذين اشترك معهم بأمور عامة — يبقى مثاليا* . ومن هنا ابتدأ ماركس وانجلز ، أي من شطب هذه الناحية ، مستخدمين المادة النظرية التي تجمعت من العلوم الاجتماعية ، وبشكل رئيسي من مؤرخي عصر الاصلاح الفرنسيين . ولكن حتى هنا

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠) .

ان هذه التحفظات التي نجدها عند فيورباخ كانت دائما توجد عندما يتحدث عن المادية . فهو يقول مثلا « عندما أرجع الى الوراء انطلاقا من هذه النقطة فانني اتفق مع الماديين اتفاقا تاما ، وعندما أتقدم الى الامام اختلف عنهم » . ومعنى هذا التصريح يتضح لنا من الكلمات التالية : « انني أقر بالمثال Idea ولكن فقط في مجال الجنس البشري والسياسة والاخلاق والفلسفة » . ولكن أي فكرة في السياسة والاخلاق ؟ ان هذا سؤال لا يجيب عنه « اقرارنا » بالمثال Idea

أمدتهما فلسفة فيورباخ ببعض المؤشرات القيمة . يقول فيورباخ : « الفن والدين والفلسفة والعلم كلها مظهر أو انكشاف للجوهر الانساني الاصلي » . ويتبع هذا أن « الجوهر الانساني » يتضمن تفسير كل الايديولوجيات أي أن تطور الايديولوجيات مرهون « بتطور الجوهر الانساني » . فماذاك الجوهر الانساني ؟ يجيب فيورباخ « انه موجود فقط في الجماعة ، في وحدة الانسان مع الانسان » . « ان هذا غامض جدا ، وهنا نرى تخما لم يتجاوزه فيورباخ* . وعلى أي حال فان خلف خط الحدود هذا تبدأ منطقة التفسير المادي للتاريخ ، منطقة اكتشفها ماركس وانجلز ، ويشير ذلك التفسير الى الاسباب ، الى سمة في مجرى التاريخ ، في « الجماعة » ، في وحدة الانسان مع الانسان ، أي في

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠) .

يعتقد فيورباخ أن « الجوهر الانساني » خلقه التاريخ . ولذا يقول : « أعتقد أنه كذات ، ثقفه التاريخ واتحد مع الكل ، مع الجنس ، مع روح التاريخ العالمي . « ان أفكاري لا بدء ولا أساس لها في ذاتيتي الخاصة مباشرة ، انما هي حصيلة ، فبدايتها واساسها هما من التاريخ العالمي نفسه » . وهكذا نرى في فيورباخ جنين الفهم المادي للتاريخ . وفي هذا المجال لم يتخط هيغل (انظر مقالتي : (في الذكرى الستين لوفاة هيغل نيوزايت ١٨٩٠) ، بل يتثاقل وراءه . **ويلح كهيغل ، على أهمية ما يسميه المثال الالماني الاكبر « الاساس الجغرافي للتاريخ** العالمي » . يقول « ان مجرى تاريخ الجنس البشري هو بالطبع المحدد له ، ما دام الانسان يتبع مجرى الطبيعة ، المجرى الذي تتخذه الينابيع . الناس يذهبون حيث يجدون سكنا ، حيث يلائمهم نوع المكان أكثر . ان الناس يستقرون في منطقة خاصة ، ويخضعون لشروط المكان الذي يعيشون فيه . ان جوهر الهند هو جوهر الهندوس . من هو ، ماذا سيصبح ؟ ان هذا فقط تاريخ نتاج شمس الهند الشرقية ، وهواء الهند الشرقية ومياه الهند الشرقية ، وحيواناتها ونباتاتها . كيف يمكن أن يظهر الانسان اساسا ان لم يكن من الطبيعة التي لا تتحمل أي افراط » (الاقوال المأثورة في كتاب غرون الجزء الثاني صفحة ٣٣٠) .

العلاقات المتبادلة التي ينخرط الناس فيها . ان خط الحدود هذا **لايفصل** فقط ماركس عن فيورباخ ، بل يثبت قربه من الاخير .

وتقول الاطروحة السادسة عن فيورباخ أن **الجوهر الانساني هو مجموعة العلاقات الاجتماعية** . ان هذا أكثر تحديدا مما قاله فيورباخ نفسه ، والارتباط النوعي الوثيق بين نظرة ماركس وفلسفة فيورباخ تتجلى هنا بوضوح أكثر من أي مكان آخر .

عندما كتب ماركس هذه الاطروحة ، عرف مسبقا ، ليس فقط الاتجاه الذي يسير فيه حل القضية المطروحة ، بل عرف الحل نفسه . **في كتابه نقد فلسفة الحق عند هيغل** أوضح أن علاقات الناس المتبادلة في المجتمع ، « العلاقة الشرعية وأشكال الدولة لايمكن أن تدرك من نفسها ، ولامما يسمى التطور العام الذي يجعله هيغل ، وقد حذا في ذلك حذو الانكليز والفرنسيين ، في القرن الثامن عشر ، تحت اسم « المجتمع المدني » ، وعلى أي حال فان تشريح المجتمع البشري يجب البحث عنه في الاقتصاد السياسي » .

بقي الآن أن نفسر منشأ الاقتصاد وتطوره للحصول على حل كامل للقضية التي كانت المادية عاجزة عن التغلب عليها قرونا بكاملها . هذا التفسير قدمه ماركس وانجلز .

ولابد من الاشارة الى انني عندما أتكلم عن **الحل الكامل** للقضية الكبرى ، فاني ارجع فقط الى حلها العام أو **الجبري** (Algebraic) ، الذي لم تتمكن المادية أن تجده عبر قرون .

ولابد من الاشارة الى انني عندما أتكلم عن **الحل الكامل** ، لأرجع الى التطور الاجتماعي الحسابي ، بل الى النظر **الجبري** (Algebra) ، ليس الى **أسباب الظواهر الفردية ، بل الى كيف أدى اكتشاف تلك الاسباب الى التقدم** . وذلك يعني ان التفسير المادي للتاريخ كان أولا ، **وقبل كل شيء ، ذا أهمية طرائقية** . وقد كان انجلز منتبها الى هذه القضية عندما كتب : « ان مانحتاجه ليس نتائج أولية كثيرة كدراسات ، نتائج لامعنى لها اذا هي أخذت منفصلة عن التطور الذي يقود الى هذه النتائج » . وعلى كل حال فان هذا شيء لم يفهمه احيانا لا « نقاد » ماركس ، سامحهم الله كما يقولون ، ولابعض « أتباعه » وهذا أسوا . قال مشيلانجو مرة عن نفسه : « ان معرفتي سوف تلد الجهال » . لقد حققت هذه الكلمات ، للاسف ، نبوءتها . وفي هذا الزمن ، تلد **معرفة ماركس** جهالا . والخطيئة لاتقع على عاتق ماركس ، بل على اولئك الذين يتفوهون بالتفاهات عندما يذكرون اسمه. وحتى نتجنب مثل هذه التفاهات من الضرورة ان نقدر **الاهمية الطرائقية للمادية التاريخية** .

★ ★ ★

٥ ـ الطريقة الديالكتيكية

ان خدمة من الخدمات الجلى ، التي ترجع بشكل عام ، الى مادية ماركس وانجلز تكمن في شرحهم المسهب **بطريقة البحث الصحيحة** . أما فيورباخ ، الذي ركز جهوده على النضال ضد العنصر التأملي في فلسفة هيغل فقد كان يقوّم تقويما قليلا العنصر الديالكتيكي ، ويقلل جدا من استخدام هذا العنصر . يقول : « الديالكتيك الحقيقي ليس حوارا لمفكر منعزل مع نفسه ، انه حوار بين « الأنا » و « الأنت» . وعلى أي حال ، وبالدرجة الاولى ، لا دلالة في فلسفة هيغل على «حوار لمفكر منعزل مع نفسه » ، وثانيا : تقدم ملاحظة فيورباخ تعريفاصحيحا **لنقطة انطلاق الفلسفة ولكن ليس لطريقتها** . هذه الفجوة ملئت من قبل ماركس وانجلز ، اللذين فهما ان من الخطأ ، في شن النضال ضد فلسفة هيغل التأملية ، أن نتجاهل ديالكتيكه . وقد صرح بعض النقاد أن ماركس ، أثناء الاعوام التي أعقبت خصومته مع المثالية ، كان غير مخالف للديالكتيك أيضا . ومع ان لهذا الرأي شيئا من وجهة النظر ، فان الحقيقة التي سبقت الاشارة اليها تجادل في ذلك ، وهي أن أنجلز في الحوليات الالمانية الفرنسية يتحدث عن الطريقة باعتبارها روح هذا النظام الجديد من الآراء* .

* لم يكن انجلز يرجع الى نفسه بل الى كل الذين شاركوه هذه الآراء . ال ، بما لا شك فيه ، ان ماركس كان واحدا من اولئك الذين شاركوه آراءه .

وفي أي حال ، فان الجزء الثاني من كتاب بؤس الفلسفة لا يدع مجالا للشك أنه في زمن مجادلته مع برودون ، كان ماركس على علم تماما بأهمية الطريقة الديالكتيكية ، وعرف كيف يستخدمها استخداما جيدا . ان انتصار ماركس في هذه الخصومة كان انتصار رجل قادر أن يفكر ديالكتيكيا ، على رجل عاجز عن فهم طبيعة الديالكتيك ، ولكنه يحاول تطبيق طريقته في تحليل المجتمع الرأسمالي . ان هذا الجزء الثاني نفسه من كتاب **بؤس الفلسفة** ، يبين ان الديالكتيك الذي كان عند هيغل ذا سمة مثالية كليا ، وبقي هكذا عند برودون (مع أنه تمثله) أقيم على **أساس مادي** ، وذلك من قبل ماركس* .

وكتب ماركس واصفا ديالكتيكه المادي : « ان عملية الحياة في الفكر البشري ، أي عملية التفكير ، التي تحت اسم « الفكرة » يحولها هيغل الى ذات مستقلة ، هي التي تخلق العالم الحقيقي ، الذي ليس سوى شكل خارجي وظواهري « للفكرة » . أما بالنسبة لي ، فعلى العكس ، ان الفكرة ليست أكثر من العالم المادي وقد عكسها العقل الانساني وترجمها الى أشكال للفكر » .

---

* أنظر في الجزء الثاني من بؤس الفلسفة (قمنا بترجمة هذا الكتاب الى العربية وصدر عن دار دمشق ـ المترجم) الملاحظتين الاولى والثانية . يلاحظ أن فيورباخ انتقد أيضا الديالكتيك الهيغلي من وجهة نظر مادية . يتساءل : « أي نوع من الديالكتيك ذلك الذي يناقض الاصل الطبيعي والتطور ؟ كيف يمكن أن تقف المواد مع « صورتها » ؟ أين « الموضوعية » في علم نفس أو فلسفة تجرد نفسها من موضوعية متماسكة وأساسية وبديهية ، تلك هي الطبيعة الفيزيائية ، انها فلسفة تعتبر ان هدفها النهائي ، حقيقتها ، وتحقيق الروح ، تكمن في الانفصال التام عن تلك الطبيعة ، وفي الذاتية المطلقة غير المقيدة بالشيء في ذاته الكانتي ، واللا أنا الفيختي » .

ان هذا الوصف يتضمن موافقة كاملة لفيورباخ ، أولا في موقفه من « فكرة » هيغل ، وثانيا في علاقة الفكر بالكائن . ان الديالكتيك الهيغلي يمكن أن « يقف على قدميه » فقط من قبل من كان مقتنعا بالمبدأ الاساسي لفلسفة فيورباخ ، أي ان الفكر ليس هو الذي يقرر الكائن ، بل الكائن هو الذي يحدد الفكر .

بعض الناس يخلطون الديالكتيك بمذهب التطور ؛ وفي الديالكتيك شيء من هذا المذهب . ولكنه يختلف اختلافا أساسيا عن « نظرية التطور » المبتذلة ، التي تقوم كليا على أنه **لا الطبيعة ولا التاريخ يتطوران بقفزات وان كل التغيرات في العالم تتم على درجات** . وقد أوضح هيغل من قبل ان مذهب التطور كان مذهبا ركيكا ومضحكا .

يقول في الجزء الاول من كتابه (المنطق) : « عندما يريد الناس فهم **ظهور أي شيء واختفاءه** ، فانهم يتصورون عادة أنهم يفهمونه بواسطة مفهوم **السمة التدريجية** لذلك الظهور والاختفاء . ان التغيرات تظهر في الكائن ليس فقط بواسطة الانتقال من كمية الى كمية أخرى، بل أيضا بواسطةالانتقال الذي **يقطع التدريجية،** ويستبدل الظاهرة بظاهرة أخرى». وفي كل مرة **تنقطع التدريجية،** تظهر قفزة . ويبين هيغل بعدد من الامثلة كيف **تظهر القفزات** عادة في الطبيعة والتاريخ ، ويفضح الخطأ المنطقي المضحك الذي تقوم عليه « نظرية التطور » المبتذلة . ويشير هيغل أن « مذهب التدريجية يقوم على مفهوم هو أن ما ظهر جديدا موجود سابقا في الواقع ، ويبقى غير **ملحوظ فقط** لانه ضيق الامتداد . وبالمثل ، فان الناس عندما يتكلمون عن الدمار التدريجي ، يتصورون ان عدم وجود الظاهرة في المسألة ، أو الظاهرة التي تحل محلها ، هو حقيقة تامة ، مع أنها غير مدركة بعد ... ولكن هذا يلغي أي بدعة

للظهور والدمار ... ان تفسير الظهور والدمار بالتغير التدريجي يعني الانحدار من القضية ككل الى **حذلقة سخيفة والى تصورات** في حالة جاهزة تماما ومسبقة (أي ظهور مسبق أو دمار مسبق ــ ــ ج بليخانوف) تقرر تلك الحالة التي **في مجرى الظهور أو** التي دمرت* » .

وافق ماركس وانجلز موافقة تامة على هذه النظرة الهيغلية الديالكتيكية **للقفزات المحتومة في عملية التطور** . وقد تطورت في تفاصيلها على يد انجلز في خصومته مع دوهرنغ ، وهنا « يقلبها رأسا على عقب » أي على **أساس مادي** .

وهكذا أشار الى ان الانتقال من شكل من أشكال الطاقة الى شكل آخر لا يمكن أن يتم الا بواسطة **قفزة**** وهكذا بحث في **الكيمياء الحديثة عن اثبات للنظرية الديالكتيكية** للانتقال من الكمية الى الكيفية . وقد وجد ان **الفكر الديالكتيكي** تؤكده **الخصائص الديالكتيكية للكائن** . فالفكر هنا مرهون أيضا بالكائن .

ودون الدخول في سمة الديالكتيك المادي (علاقته بما يسمى المنطق الاولي تشبيها له بالرياضيات الاولية ــ انظر مقدمتي للترجمة التي قمت بها لكتاب انجلز « لودفيغ فيورباخ ») سوف أذكر القارىء انه خلال العقدين الاخيرين بدأت النظرية التي لا ترى الا التغيرات التدريجية في عملية التطور تفقد أساسها حتي في مجال **علم الحياة** ، حيث اعترف بها عالميا . وفي هذا

---

* فيما يتعلق بقضية « القفزات » انظر كتابي « حسرة السيد تيخوميروف » .

** « ان هذا لينطبق على الانتقال من ميكانيك الاجرام السماوية الى ميكانيك الكتل الاصغر على جرم سماوي مخصوص ، كما ينطبق على الانتقال من ميكانيك الكتل الى ميكانيك الجزئيات ــ بما في ذلك أشكال الحركة المستقصاة في الفيزياء ... » انتي دوهرنغ ص ٥٧ .

كان هرزن على حق في قوله ان فلسفة هيغل ، التي يمكن أن تعتبر فلسفة محافظة بشكل عام ، كانت علم جبر اصيل للثورة ظل هذا الجبر عند هيغل غير منطبق كليا في القضايا المضطرمة للحياة العملية . وادخل هذا العنصر التأملي ـ بالضرورة ـ **روح المحافظة** الى فلسفة هذا المثالي المطلق . انها تختلف تماما عن فلسفة ماركس المادية ، التي بين فيها « علم الجبر » نفسه القوة التي لا تقاوم للطريقة الديالكتيكية . يقول ماركس « أصبح الديالكتيك في شكله الصوفي ، الطراز السائد في ألمانيا ، لانه نظري ويمجد الاشياء القائمة . أما في شكله العقلي فانه فضيحة وقباحة في نظر الطبقة الحاكمة ومفكريها المذهبيين ، لانه يتضمن في ذاته استيعاب الحالة القائمة للاشياء ، وتمييزها المؤكد ، ولانه يتضمن في الوقت نفسه نفي تلك الحالة وتهديمها الحتمي ، لان الديالكتيك يرى أن أي شكل اجتماعي متطور تاريخيا عبارة عن حركة دفاقة ، ومع ذلك يأخذ في الحساب طبيعة هذا الشكل الاجتماعي الانتقالية على أنها ليست أكثر من وجود موقت ، ولان الديالكتيك لا يترك شيئا يخدعه ، وهو في جوهره نقدي وثوري » .

يمكن ان نقول ، اذا ما أخذنا الديالكتيك المادي من وجهة نظر الادب الروسي ، ان هذا الديالكتيك كان أول من قدم طريقة ضرورية وجديرة لحل قضية **الاسباب العقلية لكل ما هو قائم ،** وهي قضية طالما أزعجت مفكرنا الرائع بلنسكي* . لقد كانت طريقة ماركس الديالكتيكية وحدها ، كما طبقت في دراسة الحياة الروسية ، هي التي أطلعتنا كم فيها من **واقع** و **مماثلة** للواقع .

---

* أنظر مقالتنا « بلنسكي والواقع العقلي » .

المجال ، نجد لكتاب ارماند غوتييه وكتاب هيغو دي فرييه أهمية تستمر لمرحلة كبرى . ويكفي ان نقول ان **نظرية دي فزييه في** التقلباتهي مذهب يعترفبأن تطور الانواع يتمعن طريق القفزات. (أنظر مجلده الثاني : نظرية التقلبات ، وصحيفته التقلبات والتقلبات الدورية ومحاضراته التي ألقاها في جامعة كاليفورنيا وظهرت ترجمتها في المانيا) .

وفي رأي هذا العالم الطبيعي الشهير **ان نقطة الضعف في نظرية داروين عن أصل الانواع هي ان هذا الاصل يمكن أن تفسره لنا التغيرات التدريجية** . ومما له فائدة عظيمة وجدارة كبرى ملاحظة دي فري القائلة ان لسيادة نظرية التغيرات التدريجية في مذهب أصل الانواع أثرا سيئا على الدراسة **التجريبية** للقضايا المطروحة* .

ويمكن أن أضيف انه في العلم الطبيعي المعاصر وعلى الاخص بين **اللاماركيين الجدد** ، نجد انتشارا سريعا وقويالنظريةما يسمى **روحانية المادة** ، أي أن أي مادة بشكل عام ، وأي **مادة عضوية** بشكل خاص ، تملك درجة معينة من **الحساسية . هذه النظرية،** التي يمكن اعتبارها متعارضة تعارضا كليا للمادية ، هي في الحقيقة ، عندما تفهم فهما دقيقا ، ليست سوى ترجمة مذهب فيورباخ المادي في وحدة الكائن والفكر ، والموضوع والذات ، الى لغة العلوم الطبيعية المعاصرة . ويمكن القول بكل ثقة ان ماركس وانجلز ، وقد اطلعا على هذه النظرية ، قد استفادا بمهارة من اتجاه العلوم الطبيعية .

---

* اذا لم نقل شيئا عن سبينوزا ، فان علينا ألا ننسى ان عدة ماديين فرنسيين في القرن الثامن عشر ، كانوا يميلون كثيرا الى نظرية « روحانية المادة » .

٦ ـ البيئة الجغرافية

عندما نتصدى لتفسير التاريخ من منطلق مادي ، فان الصعوبة الاولى ، كما رأينا ، هي مسألة الاسباب الحقيقية لتطور العلاقات الاجتماعية . وقد عرفنا من قبل أن « تشريح المجتمع المدني » يقرره البناء الاقتصادي . ولكن ما الذي يقرر البناء الاقتصادي هذا ؟

ان جواب ماركس هو التالي : يدخل الناس ، في الانتاج المادي لحياتهم ، في علاقات محددة ضرورية ومستقلة عن ارادتهم ـ هي علاقات الانتاج التي تتطابق مع درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية . ويؤلف المجموع العام لعلاقات الانتاج هذه **البناء الاقتصادي** ، والبناء الاقتصادي هو الاساس الحقيقي الذي يقوم عليه البناء القانوني والسياسي* » .

وهكذا يرد جواب ماركس مسألة تطور الاقتصاد كلها الى تلك الاسباب التي تقرر تطور القوى المنتجة في ادارة المجتمع. وفي هذا ، حلت المسألة ، في شكلها النهائي ، **أولا وقبل كل شيء ، بالرجوع الى طبيعة البيئة الجغرافية .**

تحدث هيغل في كتابه « فلسفة التاريخ » عن الدور الهام الذي يلعبه **« الاساس الجغرافي للتاريخ العالمي »** . ولكن في نظره:

---

* أنظر مقدمة كتاب ماركس « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » .

مادامت الفكرة هي السبب المطلق لكل تطور ، ومادام الاساس الجغرافي عابرا وذا أهمية ثانوية ، وبما انه التجأ رغم ارادته الى **التفسير المادي للظواهر** ، فان الرأي الذي أعلنه فيما يتعلق بالاهمية التاريخية للبيئة الجغرافية ، لم يقده الى كل النتائج المتتابعة التالية . وبواسطة المادي ماركس فقط رسمت هذه النتائج بكاملها* .

ان خصائص البيئة الجغرافية تقرر سمة كل من المنتجات الطبيعية التي تسد حاجات الانسان ، وسمة تلك الاشياء التي **انتجها هو بنفسه** للغرض السابق نفسه . فحيث لايوجد حديد ، لا تستطيع القبائل البدائية ، دون مساعدة ، ان تتخطى حدود ما نسميه **العصر الحجري** . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن **الصيادين والسماكين البدائيين** . فاذا ارادوا الانتقال الى الزراعة ورعي الماشية فانهم يحتاجون الى شروط مناسبة من البيئة الجغرافية ، أي الى حيوان المنطقة ونباتها . وقد أظهر لويس هنري مورغان ان انعدام الحيوانات القابلة لان تكون أهلية في العالم الجديد ، والخلافات النوعية بين نباتات البيئة لنصفي الكرة الارضية ، أوجد اختلافا هاما في مجرى التطور الاجتماعي لسكان هذين النصفين . ويقول « ويتز » عن الهنود الحمر في أمريكا الشمالية : « انهم لا يملكون حيوانات آهلة . وهذا أمر في غاية الاهمية ، لانه في هذه البيئة يكمن السبب الاساسي الذي اضطرهم الى البقاء في مرحلة دنيا من التطور » . ويصرح شوينفورت انه في أفريقيا ، عندما يزداد استيطان السكان لمنطقة من المناطق ، يهاجر جزء من السكان ، ولذلك يغيرون طريقة

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠) .
لم يتخط فيورباخ هيغل في هذه الناحية كما سبق وأشرت من قبل .

لا تزال حتى الآن زراعية ، أصبح أفرادها صيادين ، بينما سوف حياتهم **للتلاؤم مع البيئة الجغرافية الجديدة** . « ان القبائل التي ترجع القبائل التي عاشت من قطعانها الى الزراعة » . وهو يشير أيضا الى أن من الطبيعي لسكان منطقة غنية بالحديد ، وهي تشكل جزءا كبيرا من أفريقيا المركزية ، « ان يبدؤوا في صهر الحديد » .

وليس هذا كل شيء . فمن قبل في مراحل متدنية من التطور ، تدخل قبائل في معاملة متبادلة مع بعضها وتتبادل بعضا من منتجاتها . وهذا يوسع حدود البيئة الجغرافية ويؤثر في تطور القوى المنتجة لكل من تلك القبائل ، ويسهل **مجرى** التطور . ومن الواضح أن السهولة ــ قليلة كانت أم كثيرة ــ التي تظهر فيها مثل هذه المعاملة تعتمد أيضا على خصائص البيئة الجغرافية . قال هيغل ان البحار والانهار تجمع الناس الى بعضهم عندما يكون تطور القوى المنتجة قد وصل الى مستوى عال نسبيا ؛ ان البحر ــ في المستويات المتدنية ــ كما يشير « راتزل » بحق ، أعظم **عائق** للمعاملة بين القبائل التي **فرقتها** . ومن المؤكد انه كلما اشتدت تنوعات خصائص البيئة الجغرافية ، يكون ذلك أكثر ملاءمة لتطور القوى الانتاجية . يكتب ماركس قائلا : « ليست فقط خصوبة التربة ، بل إختلاف التربة ، وتنوع المنتجات الطبيعية ، وتغيرات الفصول هو ما يشكل **الاساسات** الطبيعية للتقسيم الاجتماعي للعمل ، وما يحث الانسان ، عن طريق التغيرات في المحيط الطبيعي ، على تعدد حاجاته ، وامكانياته ووسائله وطرق عمله » . ويقول راتزل ، مستخدما تقريبا المصطلحات نفسها : « ان الشيء الرئيسي ليس وجود سهولة كبرى في انتاج الطعام . بل تلك الغرائز والعادات والرغبات التي تنشأ في الانسان » .

وهكذا فان خصائص البيئة الجغرافية تقرر تطور القوى المنتجة التي تقرر هي بدورها القوى الاقتصادية ، وبالتالي كل العلاقات الاجتماعية . ويشرح ماركس هذا بالكلمات التالية :

« ان هذه العلاقات الاجتماعية التي يدخل فيها المنتجون في ارتباطات مع بعضهم ، والشروط التي فيها يغيرون فعاليتهم ويشاركون في مجمل الانتاج ، سوف تختلف طبقا لسمة وسائل الانتاج . وبدخول ادوات جديدة للحرب ، هي السلاح الناري ، تغير بالضرورة كل **التنظيم** الداخلي للجيش ؛ كل العلاقات التي فيها يتمكن الافراد من تأسيس جيش والعمل كجيش أرقى ، وتغيرت أيضا العلاقات بين الجيوش المختلفة* » .

وحتى أجعل هذا التوضيح حيا ، سوف أقدم مثالا . ان قبائل ماساي في شرق افريقيا لايبقون على حياة أسراهم ، والسبب كما يشير راتزل هو أن ليس لهذا الشعب الرعوي أي (**امكانية تكنيكية** للاستفادة من العمل العبودي ، ولكن قبائل فاكامبو المجاورة ، وهي قبائل زراعية ، قادرة على الاستفادة من هذا العمل ، ولذلك تبقي على حياة الاسرى **وتحولهم الى عبيد** . ان ظهور العبودية يتطلب مسبقا تحقيق درجة معينة في تطور القوى الاجتماعية ، درجة تسمح **باستغلال** العمل العبودي** .

---

* قال نابليون **الاول** : ان طبيعة السلاح تقرر تركيب الجيوش ، ومواقع الحملة ، والتحركات ، والتمركزات ، وتنظيم المعركة ، والمعابر والمواقع الحصينة وجوانبها ، وهذا تعارض دائم بين نظام الحرب القديمة ونظام الحرب الحديثة» (حروب قيصر المحكمة) .

** يجب أن يلاحظ أنه في المراحل المبكرة من التطور لم يكن استعباد الاسرى أحيانا يتعدى **دمجهم القسري في التنظيم الاجتماعي للغزاة، مع التسليم لهمبحقوق متساوية . فهنا لا نجد استفادة من فائض عمل الاسير ، ولكن الصالح العام هو الذي يستفيد من التعاون معه** . وعلى أي حال ، فحتى هذا الشكل من العبودية يفترض مسبقا وجود قوى منتجة معينة . وتنظيما محددا للانتاج .

ولكن العبودية عبارة عن **علاقة انتاج** يشير ظهورها الى بداية الانقسام الى طبقات في مجتمع لم يكن يعرف حتى الآن أي انقسامات أخرى غير **الجنس والسن** . وعندما تصل العبودية الى مرحلة النضج في تطورها ، تضع ميسمها على كل اقتصاد المجتمع ، ومن خلال هذا الاقتصاد تمهر كل العلاقات الاجتماعية، وفي الدرجةالاولى **البناء السياسي** . ومهما اختلفت الدولالقديمة في بنائها السياسي ، فان سمتها المميزة هي أن كل دولة منها كانت عبارة عن منظمة سياسية تعبرعن مصالح السادة الاحرار وتصون هذه المصالح .



٧ ـ البيئة الجغرافية والقوى المنتجة

عرفنا الآن ان تطور القوى المنتجة ، التي تقرر ـ فيالتحليل الاخير ـ تطور العلاقات الاجتماعية ، تحددها **خصائص البيئة الجغرافية** . ولكن بما أن العلاقات الاجتماعية قد ظهرت فانها نفسها تمارس **تأثيرا ملحوظا على تطور القوى المنتجة** . وهكذا **فان ما كان أثرا يصبح بدوره مؤثرا** ، فيقوم بين تطور القوى المنتجة والبناء الاجتماعي **تداخل** يجمع الاشكال المختلفة لمراحل عديدة .

ويجب أن نتذكر ان **العلاقات الداخلية** في مجتمع معين اذا كانت تحددها حالة معينة للقوى المنتجة ، فان **على القوى المنتجة** في التحليل الاخير **تقوم العلاقات الخارجية** للمجتمع . ومع كل مرحلة في تطور القوى المنتجة تقوى مطابقة بين السمة المحددة **للتسلح** و **فن الحرب** ، والقانون **الدولي** ، أو اذا أردنا الدقة أكثر ، تكون المطابقة **داخل المجتمع** أي من بين كل الاشياء **هي القانون القبلي المشترك** . ان القبائل التي تعيش على الصيد لا يمكنها تشكيل تنظيمات سياسية كبيرة ، لان المستوى المنخفض لقواهم المنتجة يضطرهم الى **التبعثر** في مجموعات إجتماعية صغيرة ، بحثا عن مقومات الحياة . ولكن كلما تبعثرت هذه المجموعات ، ازدادت المنازعات التي تحل بمعارك دموية ضارية ، بينما تحل في المجتمع المتمدن عن طريق القضاء . يقول « آير » انه عندما تجمع قبائل استرالية عديدة قواها من أجل أهداف

معينة في مكان خاص ، فان هذه الاتصالات والاجتماعات لن يكون أمدها طويلا وحتى قبل مرحلة نقص الغذاء أو الحاجة الى الصيد ، اضطر الاستراليون الى التفرق واندلعت المشاحنات العدائية بينهم التي سرعان ما أدت ، كما هو معروف ، الى معارك مريرة .

ان كل امرىء سيفهم ان مثل هذه المشاحنات يمكن أن تنشأ لاسباب مختلفة . ومما يستحق الذكر أن معظم الرحالة يعزون هذه المشاحنات **لاسباب اقتصادية** . عندما سأل ستانلي عدة مواطنين في أفريقيا الاستوائية كيف كانت حروبهم ضد القبائل المجاورة تنشأ وتشب نيرانها ، كان الجواب أن : « بعض شبابنا يتوغلون في الغابة بغية الصيد ، فيفاجئهم جيراننا ، وعندها نهرع اليهم ويهرعون هم لقتالنا الى أن ينهك أحد الطرفين وينهزم* » . ويضرب بورتون على المنوال نفسه فيقول : « ان كل الحروب الافريقية ترجع الى سبب أو سببين : تنقل الماشية أو الاختطاف** » . ويعتبر راتزل ان من المحتمل ان الحروب النيوزيلاندية بين المواطنين كانت تسببها باستمرار الرغبة في امتاع الجسد البشري . ان رغبة السكان في أكل لحوم البشر ، هي في حد ذاتها ، تجد تفسيرها في ندرة حيوانات البيئة النيوزيلاندية .

وكل امرىء يعرف الى أي مدى كبير تعتمد نتيجة الحرب على الاسلحة المستخدمة من قبل كل من المتحاربين . ولكن هذه الاسلحة تقررها حالة القوى المنتجة والاقتصاد والعلاقات

---

* ستانلي في كتابه : « أفريقيا السوداء » .

** راجع د ـ بورتون « منطقة البحيرات في افريقيا المركزية » لندن ١٨٦٠ .

الاجتماعية التي تقوم على أساس ذلك الاقتصاد* . ولنقل ان بعض الشعوب أو القبائل **أخضعهم** شعب آخر ، فان هذا لا يعني أننا عثرنا على جواب كاف للسؤال الثاني : لماذا كانت النتائج الاجتماعية لذاك **الاخضاع** على هذا الشكل وليست على شكل آخر . ان النتائج الاجتماعية لغزو روما من قبل الغال لم تكن هي نفسها نتائج غزو ذاك القطر من قبل الالمان . ان النتائج الاجتماعية لغزو النورمانديين لانكلترا مختلفة جدا عن تلك النتائج التي نجمت عن الغزو المغولي لروسيا . وفي كل هذه الحالات يعتمد الاختلاف في نتائج الغزو اعتمادا مطلقا على الاختلاف بين **البناء الاقتصادي** للمجتمع المغلوب من جهة ، والمجتمع الغالب من

---

* شرح انجلز هذه القضية شرحا يدعو الى الاعجاب في فصول من كتابه « أنتي دوهرنغ » فعالج معالجة تحليلية « نظرية القوة » . انظر أيضا كتاب « معلمو الحرب » للكولونيل روست ، الاستاذ في مدرسة الحرب العليا ــ باريس. يكتب هذا المؤلف شارحا آراء الجنرال بونال « ان الشروط الاجتماعية التي تظهر في كل فترة من فترات التاريخ ، تمارس تأثيرا خطيرا ، ليس فقط على التنظيم العسكري للامة ، وانما على الشخصية والقابليات وعلى اتجاهات رجال الجيش. ان الجنرالات العاديين يستخدمون الطرق المألوفة والمتفق عليها ويطبقونها فاما ينجحون واما يفشلون طبقا للظروف فيما اذا كانت مواتية أو غير مواتية لهم ... أما الضباط العظام فانهم يخضعون لعبقريتهم وسائل الحرب واجراءاتها » (ص ٢٠) فكيف يفعلون هذا ؟ ذاك هو أهم ما في المسألة . يبدو « أنهم ــ مساقين بنوع من الغريزة الالهية ــ يحولون الوسائل والاجراءات لتتطابق مع القوانين المماثلة للتطور الاجتماعي ذات التأثير الحاسم في تكنيك فنهم ، والتي كانوا وحدهم يفهمونها في أيامهم » ويبقى علينا ان نكتشف الرابط المسبب بين التطور الاجتماعي والتطور الاقتصادي للمجتمع من أجل تقديم شرح مادي للنجاحات المفاجئة في الحرب . ان روسيت نفسه قريب جدا من تقديم مثل هذا التفسير . وقد قام مختصره التاريخي لفن الحرب على مذكرات الجنرال بونال غير المطبوعة وهو مشابه جدا لما نجده مشروحا عند انجلز في التحليل الذي أشرنا اليه وفي أماكن عديدة يقترب التشابه من التطابق التام .

جهة ثانية . وكلما تطورت القوى المنتجة لشعب أو قبيلة معينة ازدادت **فرصها** لتسلح نفسها تسليحا جيدا لشن النضال من أجل وجودها .

يمكن أن يكون ثمة عدة استثناءات لهذه القاعدة العامة تستحق الذكر . ففي المستويات المتدنية لتطور القوى المنتجة ، نجد الاختلاف في أسلحة القبائل التي هي في مراحل متخلفة من التطور الاقتصادي - مثلا الرعاة البدو والمزارعون المستقرون - لا يكون اختلافا عظيما جدا كما سيصبح فيما بعد . والى جانب ذلك ، فان التقدم في التطور الاقتصادي ، مع ماله من أثر بليغ في شخصية شعب معين ، يثبط حب هذا الشعب للحرب الى درجة تجعله عاجزا عن مقاومة عدو أكثر منه تخلفا ولكنه أكثر منه مراسا في الحرب . وهذا هو السبب في أن **القبائل المسالمة من المزارعين** غالبا ما تتعرض لغزو **الشعوب المحاربة**. ويلاحظ راتزل أن معظم تنظيمات الدولة إسستها « شعوب نصف متمدنة » كنتيجة للوحدة التي تمت عن طريق الغزو بين كلا الشعبين : الزراعي والرعوي . وعلى أي حال مهما كانت هذه الملاحظة صحيحة بشكل عام ، يجب أن نتذكر انه حتى في مثل هذه الحالات (والصين مثال جيد في هذا الخصوص) يجد الغزاة المتخلفون اقتصاديا أنفسهم بالتدريج قد استسلموا نهائيا لتأثير الشعب **الخاضع** ولكنه أكثر تقدما من الناحية الاقتصادية .

ان البيئة الجغرافية تمارس تأثيرا بليغا ، ليس على القبائل البدائية ، بل أيضا على ما نصطلح على تسميته **الشعوب المتمدنة.** وكما كتب ماركس : « ان ضرورة إنشاء قوة طبيعية تحت اشراف المجتمع ، ليجعلها اقتصادية ومناسبة أو خاضعة بشكل واسع لعمل اليد البشرية ، هي التي لعبت أولا الدور الحاسم في تاريخ الصناعة . والامثلة على ذلك هي أعمال الري في مصر ولومبارديا

وهولاندا أو في الهند وفارس حيث كان الري بواسطة الاقنية الصناعية لا يمد التربة بالمياه الضرورية لها ، بل يحمل اليها ، على شكل رواسب من التلال ، المواد المعدنية المخصبة . ان سر انتعاش الدولةفي الصناعةفي اسبانيا وصقلية تحت سيطرة العرب يكمن في علمهم بالري* » .

ان مذهب تأثير البيئة الجغرافية على التطور التاريخي للبشرية يرجع عادة الى التأثير **المباشر** « للطقس » على الانسان الاجتماعي : فقد افترضوا انه تحت تأثير « الطقس » يصبح « عرق » ما من العروق محبا للحرية ، ويصبح عرق آخر ميالا للخضوع باستكانة لحكم ملك طاغية ، ويصبح عرق آخر خاضعا للوهم فيعتمد على الكهانة ... الخ . وقد سيطر هذا الرأي على بوكل مثلا** . أما بالنسبة لماركس ، فان **البيئة الجغرافية تؤثر في الانسان من خلال وسيط هو علاقات الانتاج التي تظهر في منطقة**

---

* « رأس المال » ص ٢٢٤ — ٢٢٦ .

** انظر كتابه « تاريخ الحضارة في أنكلترا » المجلد الاول . فطبقالبوكل، نجد أن واحدا من الاسباب الاربعة المؤثرة في شخصية الشعب ، أي المظهر العام للطبيعة ، يعمل بشكل رئيسي في الخيال ، فالخيال الراقي يورث أوهاما ، هذه الاوهام تؤخر بدورها تطور المعرفة . فالزلازل المتكررة في البيرو ، بتأثيرها في خيال المواطنين ، أثرت في البناء السياسي . واذا كان الاسبان والطليان يستسلمون للاوهام ، فان هذا أيضا نتيجة الزلازل والانفجارات البركانية . وهذا التأثير النفسي المباشر قوي بشكل خاص في المراحل المبكرة من تطور الحضارة . وعلى أي حال فان العلم الحديث ، على العكس ، أظهر ان التشابه الدقيق للعقائد الدينية في القبائل البدائية يرجع الى المستوى نفسه من التطور الاقتصادي . ان رأي (بوكل) الذي استعاره من كتاب القرن الثامن عشر ، يرجع في تاريخه الى هيبوقراط (أنظر رسالة هيبوقراط في الهواء والمياه والاماكن ، ترجمها آدمز وطبعت في لندن ١٨٤٩ المجلد الاول) .

معينة على أساس قـوى منتجة محـددة ، حيث يكمن الشرط الاساسيلتطورها في خصائص تلك البيئة. انعلم الاجناس الحديث يأخذ أكثر فأكثر بهذه النظرة ، ويولي اهتماما ضئيلا ب «العرق» في تاريخ الحضارة . يقول راتزل : « ان تحقيق منجزات ثقافية معينة لا علاقة له البتة بالعرق* » .

ولكن حالما تصل الحضـارة الى مستوى معين ، تأخـذ في التأثير تأثيرا مؤكدا في صفات « العرق » الجسدية والعقلية** .

ان أثر البيئة الجغرافية في الانسان الاجتماعي ذو **أهميـة مختلفة** . ان تطور القوى المنتجة ، بارتباطها بخصائص تلك البيئة الجغرافية ، يضاعف من سيطرة الانسان على الطبيعة ، **ولذلـك يجعله هذا التطور في علاقة جديدة** تجاه البيئة الجغرافية المحيطة به ، وقد رد الانكليز في هذه الايام على تلك البيئة بطريقة لا تماثل الطريقة التي ردت بها القبائل التي قطنت انكلترا أيام يوليوس قيصر . ان هذا يبعد الاعتراض القائـل ان شخصية السكان في منطقة معينة يمكن أن تتغير مبدئيا مع أن الصفات الجغرافيـة لهذه المنطقة تبقى دون تغيير .

---

* قال جون ستيورات مل ، مكررا كلمات « أحد مشاهير المفكرين فيعصرنا» : « من بين كل الطرق المبتذلة للخلاص من الاخذ بتأثير العوامل الاخلاقية والاجتماعية على العقل الانساني ، ثمة طريقة مبتذلة جدا هي تلك التي تعزو مفارقات السلوك والشخصية الى الاختلافات الطبيعية الموروثة « أنظر في هذا الصدد كتاب « مبادىء الاقتصاد السياسي » لمل نفسه المجلد الاول ص ٣٩٠ .

** فيما يتعلق بالعرق أنظر كتاب فينو المتع . باريس ١٩٠٥ . ويكتب ويتز قائلا : ان قبائل زنجية معينة تقدم أمثلة دقيقة عن الرابط بين حالة الحضـار العام والشخصية القومية . أنظر كتابه (علم أجناس الطبيعة) .

٨ ـ عوامل التطور الاجتماعي

ان العلاقات القانونية والسياسية* تتولد عن بناء اقتصادي معين ، يمارس تأثيرا حاسما على كل **ذهنية** الانسان الاجتماعي . يقول ماركس « فوق الاشكال المختلفة للملكية ، وفوق الشروط الاجتماعية للوجود ، يقوم بناء فوقي كامل للعواطف والاوهام وطرق التفكير والآراء التي تنظر في الحياة » ان **الكائن** هو الذي يقرر **الفكر** . ويمكن القول أن كل خطوة يخطوها العلم في تفسير عملية التطور التاريخي هي مناقشة جديدة لصالح الاطروحة الاساسية للمادية المعاصرة .

وقد كتب من قبل لودفيغ نواري : « لقد كان الجهد المشترك الموجه لتحقيق هدف عام ، لقد كان العمل الاساسي لاسلافنا ، هو الذي انتج اللغة والتفكير » وأشار نواري مطورا

---

* فيما يتعلق بتأثير الاقتصاد على خصائص العلاقات الاجتماعية ، انظر انجلز « أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » . ولسوء الحظ نجد (هيلد برانت) يستخدم مقولته الاقتصادية استخداما سيئا . ان (ت ـ اخيلس) في كتابه
Rechtsentt chung und Rechts Gischiche
يعتبر القانون نتاجا لتطور الحياة الاجتماعية ، دون التعمق في أي تطور يرتبط به . وفي كتاب فاكارو « الاساس السوسيولوجي للقانون والدولة » نجد عدة ملاحظات فردية مبعثرة هنا وهناك تلقي ضوءا على بعض مظاهر الموضوع ، وبشكل مجمل ، ان فاكارو نفسه لم يظهر انه مطلع تماما على المسألة . انظر أيضا كتاب تيريا لابريولا « مراجعة نقدية للنظرية الحديثة في أصل القانون » روما ١٩٠١ .

هذه الفكرة البارزة ، الى أن اللغة تشير اساسا الى الاشياء الموجودة في العالم الموضوعي ليس باعتبارها تملك **شكلا** معينا ، بل باعتبارها تتلقى ذلك الشكل ؛ ليس باعتبارها **معلومة وتمارس** فعلا محددا ، وانما باعتبارها **مجهولة** ، وتخضع لذلك **الفعل** . ويتعمق في تفسيره هذه الملاحظة الحصينة وهي أن « كل الاشياء تدخل حقل الرواية للانسان ، أي تصبح **أشياء** بالنسبة اليه ، فقط بالدرجة التي **تخضع** فيها لعمله ، وبتطابقها مع هذا تحصل على مضموناتها ، أي أسمائها . وباختصار ، ان الفعالية البشرية ، حسب رأي نواري ، هي التي تمنح المعنى للجذور الاساسية للغة » .

ومن المفيد أن نشير الى أن نواري وجد الجنين الاول لنظريته في فكرة فيورباخ القائلةأن جوهر الانسان يكمن في التجمع، في وحدة الانسان مع الانسان . ومن الواضح أنه لم يعرف شيئا عن ماركس ، والا لكان رأي أن نظريته في دور **الفعالية** في صياغة اللغة كانت جد قريبة الى كارل ماركس ، الذي شدد في نظريته في المعرفة على الفعالية الانسانية ، على عكس فيورباخ الذي تكلم في الغالب عن « التأمل » .

وفي هذا الترابط ،من الضرورة القصوى أن نذكر القارىء، بالرجوع الى نظرية نوراي التي تقول أن سمة **فعالية** الناس في عملية الانتاج تقرها حالة قواهم المنتجة . ان هذا لواضح جدا . ومن المجدي أن نلاحظ أن التأثير الحاسم للكائن على الفكر يظهر بوضوح تام في القبائل البدائية ، التي نجد أن حياتها العقلية والاجتماعية ابسط بما لا يقارن من الشعوب المتحضرة . ويكتب كارل فون دين شتينن عن سكان البرازيل المركزية مشيرا الى أننا سوف نفهمهم فقط عندما نعتبرهم حصيلة **لحياتهم كصيادين** .

ويستمر في القول : « وبمساعدة تلك الخبرة نفهم أنهم شرحوا الطبيعة وشكلوا نظرتهم العامة » . ان شروط حياتهم كصيادين تحدد ، ليس فقط النظرة العامة لتلك القبائل ، بل تحدد أيضا مفهوماتهم الاخلاقية ، وعواطفهم ، وذوقهم الجمالي ، كما يقول الكاتب . ونرى الشيء نفسه تماما في **القبائل الرعوية** . ومن بين هؤلاء الذين يسميهم راتزل **الرعاة الخلص** « نجد موضوع ما لا يقل عن ٩٩٪ من مكالماتهم يدور حول القطيع والدين والعادات والمناقب والمثالب » . فمثل قبائل « الهيريرو » الافريقية التعيسة الذين « هداهم » الالمان « المتحضرون » بكل قسوة، كانوا رعاة خلصا*».

اذا كانت الوحوش هي المصدر الاولي للتجربة عند الصياد البدائي ، واذا كانت كل نظرته العامة قائمة على تلك التجربة ، عندها لا عجب اذا كانت **ميثولوجيا** قبائل الصيد ، التي تحل في تلك المرحلة محل الفلسفة واللاهوت والعلم ، تستقي كل مضمونها من المصدر نفسه . يكتب اندريو لانج « ان خصوصية ميثولوجيا البوشمان هي في الغالب السيطرة المطلقة للحيوانات . وما عدا « امرأة عجوز » تظهر بين حين وآخر في هذه الاساطير المفككة ،

---

* بالنسبة للرعاة الخلص انظر غوستاف فريتش الذي يقول : « ان الموضوع المثالي لاحلام الكافير(٧) وما يجب أن يتغنى به ، هو قطيعه ، أثمن ما يملك . وأغانيه في القطيع تتناوب مع أغانيه في شرف رؤسائه القبليين . هذه الاغاني التي يحتل فيها القطيع دورا هاما . وبالنسبة للكافير يعتبر رعي القطيع أشرف الاعمال ، وحتى ان الحرب تسر الكافير لانها تعده بغنيمة على شكل قطيع . « ان الدعاوى القضائية بين الكافيريين هي نتيجة الصراعات من أجل القطيع » أن فريتش يقدم وصفا شيقا لحياة صيادي البوشمن .

---

(٧) الافريقي القاطن في المنطقة القريبة من رأس الرجاء الصالح .
(المترجم)

فان من العسير ان يرى المرء في خرافاتهم شكلا بشريا واحدا* » .
وطبقا لبروف سميث فان السكان الاستراليين ـ أمثال البوشمن الذين لم يتخطوا مرحلة الصيد ـ يتخذون معظم الطيور والوحوش آلهة لهـم** » .

ان دين القبائل البدائية لم يدرس بعد الدراسة الكافية . ولكن ما نعرفه من قبل يؤكد تماما صحة الاطروحة المختصرة التي وضعها ماركس عن فيورباخ وهي « ان الدين لم يصنع الانسان ، بل الانسان هو الذي صنع الدين » . وكما يقول (إد تايلور) : « من الواضح ان الانسان ـ عند كل الامم ـ كان النموذج المقدس . ان هذا يفسر لنا لماذا يصبح بناء المجتمع البشري وحكومته نمطين لمجتمع سماوي وحكومة سماوية*** . ان هذه النظرة ، دون شك نظرة مادية في الدين ، والمعروف ان سان سيمون اعتنـق نظرة معاكسة مفسرا النظام الاجتماعي والسياسي لليونان القديمة من خلال عقائدهم الدينية . ان من الاهمية بمكان ان العلم قد طفق يكتشف الرابط السببي بين المسـتوى التكنيكي للشعوب البدائية ونظرتهم العامة . (وسأعود الى هذه النقطة فيما بعد عند عرض مسألة أخرى) . وفي هذا المجال جاءت المكتشفات القيمة تؤيـد العلم وتعززه**** » .

---

* « الخرافة والطقوس والدين » لندن ١٨٨٦ المجلد الثاني ص ١٥ .

** يرجع الفضل في هذا الى ملاحظة (ر ـ اندريه) وهي أن الانسان تخيل آلهته في الاصل على شكل حيوانات . « عندما اتخذ الانسان فيما بعد شكل الحيوانات الانسانية ، ظهر التحويل الاسطوري للانسان الى حيوان » . ان التحول الجنسي للحيوانات يفترض مسبقا مستوى عاليا من تطور القوى المنتجة.

*** « الحضارة البدائية » المجلد الثاني ص ٣٢٢ .

**** (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠)

أبيح لنفسي احالة القارىء الى مقالتي في صحيفة العالم المعاصر بعنوان « حول ما يسمى بالتنقيب الديني في روسيا » (أيلول ١٩٠٩) ففيها ناقشت أيضا أهمية الفنون الميكانيكية في تطور المفهومات الدينية .

أما فيما يتعلق **بأيديولوجية** المجتمع البدائي ، فقد درس **الفن** دراسة تفضل دراسة أي فرع آخر : وجمعت مادة وفيرة تبين بطريقة واضحة ومقنعة **حتمية** التفسير المادي للتاريخ . وأشير هنا من بين المؤلفات التي تتناول هذا الموضوع الى أكثرها أهمية : الفن الافريقي تأليف شوينفورت . الانتروبولوجيا المقارنة لأندريه . الكتابة الصورية للهنود الامريكان (الهنود الحمر) لمالري . وعشرة تقارير سنوية للجنة علم العروق في واشنطن ١٩٨٣ (وتقارير السنوات الاخرى تتضمن مادة قيمة عن تأثير الفنون الميكانيكية ، وخاصة النسيج في شارات زخرفية) ... وغير ذلك من الكتب والمؤلفات الهامة .

ان النتائج التي توصل اليها العلم الحديث فيما يتعلق بمسألة بداية الفن سوف تظهر من الاقتباسات التالية من المؤلفين الذين ذكرتهم توا .

يقول هورنس : « يمكن ان تتطور الشارة الزخرفية(٨) فقط من الفعالية الصناعية التي هي الشرط المادي المسبق ... ان الشعوب التي لا تمتلك أي صناعة لا تملك أي شارة زخرفية ».

ويعتقد فون دين شتين ان **الرسم** تطور من صنع الشارات المستخدمة لاهداف عملية للاشياء المشار اليها .

وصاغ بوخر النتيجة التالية : « في المرحلة البدائية من تطور العمل والموسيقى والشعر ، كانت كل هذه الاشياء ممتزجة مع بعضها . وكان العمل العنصر الرئيسي في هذه الاقاليم الثلاثة بينما تكتسب الموسيقى والشعر أهمية ثانوية » ففي رأيه أن « أصل الشعر يجب أن يجري البحث عنه في العمل » ، ويتابع

---

(٨) يقصد بليخانوف بالشارة الزخرفية البداية الاولى للفن (المترجم)

كلامه فيلاحظ ان ليس هناك لغة تنظم الكلمات جاعلة منها جملة في الكلام العادي ، بنموذج ايقاعي . ولذلك فان من المستبعد أن يكون الانسان قد توصل الى كلام شعري موزون من خلال استخدام اللغة اليومية — ان المنطق الداخلي لتلك اللغة يعمل ضد هذا . اذن كيف يفسر المرء أصل الكلام الشعري الموزون ؟ . ان بوخر من الرأي القائل ان الحركات الايقاعية الموزونة للجسم حولت قوانين ايقاعها الى كلام شعري مجازي . ان هذا أكثر احتمالا من غيره اذا تذكر المرء أنه في المراحل الدنيا من التطور تكون **حركات** الجسم الايقاعية مصحوبة عادة **بالغناء** . ولكن ما تفسير ايقاع الحركات الجسمية ؟ **انه يكمن في طبيعة عمليات الانتاج** . وهكذا يجب أن يجري « **البحث عن أصل الشعر في الفعاليات الانتاجية** » .

ويصوغ والاشيك رأيه في أصل **التنفيذ الدراماتيكي** بين القبائل البدائية بالطريقة التالية : ان موضوع تلك التنفيذات الدراماتيكية هي :

١ — الصيد ، الحرب ، التجذيف (بين الصيادين ، حياة الحيوانات وعاداتها ، الاشارات والاقنعة الحيوانية*) .

٢ — حياة الماشية وعاداتها (بين الشعوب الرعوية) .

٣ — العمل (بين المزارعين « البذار ، الدراسة ، تشذيب الكرمة ») .

---

* تكون عادة حيوانات مرسومة أيضا — ج ، بليخانوف .

وتسهم كل القبيلة في التنفيذ ، كلهم يغنون (في مجموعة) ، وكلمات الاغاني لا معنى لها . والمضمون يظهره التنفيذ نفسه (الاشارات) . فقط أعمال الحياة اليومية يمثلها الافراد باعتبارها ضرورية جدا في الصراع من أجل الوجود » . يقول والاشيك ان المجموعة (الكورس) في عدة قبائل بدائية ، خلال مثل هذه التنفيذات ، تنقسم الى قسمين متعارضين . ويضيف « هكذا كان أصل الدراما الاغريقية ، التي كانت هي أيضا عبارة عن اشارات حيوانية في مستهلها . كان الماعز هو الحيوان الذي لعب الدور الاهم في اقتصاد الاغريق ، حيث استقوا كلمة « تراجيديا » من (تراجوس) وهي المرادف اليوناني لكلمة (ماعز) » .

ان من الصعب ان نقدم أكثر من هذا ايضاحا دقيقا على صحة الفرضية القائلة : ليس الفكر هو الذي يحدد الكائن ، بل الكائن هو الذي يحدد الفكر .

٩ ـ هل الماركسية مفهوم احادي الجانب ؟

ولكن الحياة الاقتصادية تتطور تحت تأثير نمو القوى المنتجة ولذا فان العلاقات المتبادلة للشعب المنهمك في عملية الانتاج تخضع للتغيرات ، ومع هذه التغيرات تحدث تغيرات أخرى في العقلية البشرية . وكما وضع ماركس المسألة : « تصل **القوى المنتجة** المادية في المجتمع عند مرحلة معينة من مراحل تطورها ، الى الصراع مع علاقات الانتاج القائمة أو ـ حسب التعبير القانوني عن الامر نفسه ـ مع علاقات الملكية الخاصة التي يعملون بها الآن . وتنقلب هذه العلاقات من أشكال لتطوير القوى المنتجة الى قيود لها . وعندئذ تبدأ فترة من الثورة الاجتماعية . وبتغير الاساس الاقتصادي يكون البناء الفوقي الضخم الذي يقوم على هذا الاساس الاقتصادي أكثر الاشياء سرعة في التغير ... فلا نظام اجتماعي يمكن أن ينتهي قبل أن تنتهي كل القوى المنتجة التي يجد فيها هذا النظام متسعا لتطوره والعلاقات الانتاجية الاكثر تطورا لا تظهر قبل أن تنضج الشروط المادية الموجودة في رحم المجتمع القديم* . ولذلك فان البشرية

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩٠١) .

عرف عن بعض الماركسيين في قطرنا انهم يفكرون خلال هذا في خريف عام ١٩٠٥ . لقد اعتبروا ان بالامكان قيام ثورة **اشتراكية في روسيا ما دامت** القوى المنتجة للقطر متطورة ـ كما يزعمون ـ تطورا كافيا لمثل هذه الثورة(٩) .

---

(٩) تدل هذه الملاحظة على موقف بليخانوف المنشفيكي . فقد غض النظر ←

تتصدى للمهمات القابلة للحل ما دامت تجد ـ اذا ما نظرنا الى المسألة عن كثب ـ ان المهمة نفسها تظهر فقط عندما تكون الشروط المادية لحلها موجودة سابقا أو على الاقل متوفرة في عملية الصياغة » .

أمامنا الآن « علم جبر » كامل ومادي تماما للتطور الاجتماعي. وفي هذا الجبر مندوحة **للقفزات** (في فترة الثورات الاجتماعية) **وللتغيرات التدريجية** . ان التغييرات الكمية التدريجية في خصائص نظام الاشياء ، تقود حتما الى **تغير في الكيفية** ، أي الى انهيار **طريقة الانتاج القديمة** ـ أو كما يعبر ماركس ، النظام الاجتماعي القديم ـ والى احلال طريقة جديدة محلها . وكما يلاحظ ماركس، ان طريقة الانتاج الشرقية والقديمة والاقطاعية والرأسمالية الحديثة ، يمكن أن تعتبر ، بشكل عام ، مراجل ناجحة(تقدمية) في التطور الاقتصادي للمجتمع . وهناك سبب يقنعنا انه عندما **كتب** مورغان عن المجتمع القديم ، غير رأيه بالنسبة لعلاقة طريقة الانتاج في **القديم** الى طريقة الانتاج في **الشرق** . والحق أن منطق التطور الاقتصادي لطريقة الانتاج الاقطاعية ، أدى الى

←

عن كثير من الصفات النوعية التي أدركها لينين في تلك المرحلة . ان بليخانوف يريد ثورة على النمط الغربي . وقد رفض الاقرار بامكانية الثورة الاشتراكية نظرا لطبيعة روسيا الزراعية . قال لينين في كتابه « تقرير عن ثورة ١٩٠٥ » : « ان الثورة الروسية تتسم بسمة أصيلة قوامها انها كانت ثورة **برجوازية ديموقراطية** من حيث مضمونها الاجتماعي ، ولكنها ثورة **بروليتارية** من حيث وسائلها الكفاحية » . ويقدم هذه الكلمة التنبؤية الواثقة ردا على الموقف المنشفيكي « ولا ريب ان الثورة المقبلة لا يمكن ان تكون غير ثورة بروليتارية ، وبتعبير أعمق : ثورة بروليتارية اشتراكية من حيث مضمونها أيضا » راجع المؤلفات الكاملة المجلد ٢٣ « تقرير عن ثورة ١٩٠٥ » . (المترجم)

الثورة الاجتماعية التي ثبتت انتصار **الرأسمالية** . ولكن منطق التطور الاقتصادي **للصين** أو **مصر القديمة** ، مثلا ، لم تؤد قطعا الى ظهور طريقة الانتاج **القديمة** . وفي المثال السابق تحدثنا عن وجهين للتطور ، **الاول يتبع الآخر** ، ويتولد عنه ويمثل المثال الثاني ، من الناحية الاخرى ، نمطين متعايشين للتطور الاقتصادي . ان المجتمع **القديم** ، يحتل مكانه في **التنظيم الاجتماعي العشائري ، والأخير أيضا يسبق ظهور النظام الاجتماعي الشرقي .** **ان كلا من هذين النمطين** للبناء الاقتصادي كان حصيلة النمو في القوى المنتجة داخل التنظيم العشائري . وهي عملية قادت حتما الى تفتيت كامل للنمط الاخير . واذا كان هذان النمطان مختلفين : الواحد يختلف عن الآخر اختلافا بينا ، فان سماتهما المميزة الرئيسية تطورت **تحت تأثير البيئة الجغرافية** ، الذي يفرض في **حالة معينة نوعا** من العلاقات الانتاجية الشاملة للمجتمع الذي حقق درجة من النمو في القوى المنتجة ، ويفرض في **حالة أخرى نوعا آخر** يختلف جدا عن الاول .

ان اكتشاف النمط العشائري للتنظيم الاجتماعي لعب دورا في العلوم الاجتماعية ، يشبه تماما الدور الذي لعبه اكتشاف **الخلية** في علم الحياة . وبما أن ماركس وانجلز لم يكونا مطلعين اطلاعا واسعا على هذا النمط من التنظيم ، كان لا بدمن وجود ثغرات في نظريتهما عن التطور الاجتماعي ، كما اشار انجلز نفسه مرارا .

ولكن اكتشاف النمط العشائري للتنظيم ، الذي قدم للمرة الاولى مفتاحا لفهم المراحل الدنيا من التطور الاجتماعي ، لم يكن الا مناقشة جديدة وقوية ، **لمصلحة** التفسير المادي للتاريخ ، وليس **ضد هذا المفهوم** . لقد أمدنا ببصيرة أعمق في الطريقة التي

فيها اتخذت الوجوه الاولى للكائن الاجتماعي شكلها ، وعندها يحدد الكائن الاجتماعي الفكر الاجتماعي . ان الاكتشاف سلط الاضواء الكشافة على حقيقة ان الفكر الاجتماعي انما يحدده الكائن الاجتماعي .

لقد أشرت الى هذا اشارة عابرة . ان الشيء الرئيسي الذي يسترعي الانتباه هو ملاحظة ماركس القائلة ان علاقات الملكية توجد عندما تصل القوى المنتجة مستوى معينا **تشجع النمو المتعاظم لهذه القوى** لفترة ، وعندئذ تأخذ باعاقة هذا النمو* . ان هذا يذكرنا بحقيقة انه مع أن الحالة المعينة للقوى المنتجة هي **سبب** علاقات الانتاج المعينة ، وبشكل خاص علاقات الملكية ، فان الاخيرة (مع أنها كانت **نتيجة للسبب المذكور سابقا**) تبدأ نفسها التأثير في السبب. وهكذا يقوم **تداخل** بين القوى المنتجة والاقتصاد الاجتماعي . وما دام كل البناء الفوقي للعلاقات الاجتماعية ، والعواطف والمفهومات ، ينمو على أساس اقتصادي ، ذلك البناء الفوقي الذي يحضن التطور الاقتصادي ثم يعرقله ، فان **تداخلا** يقوم بين البناء الفوقي والقاعدة الاقتصادية ، هذا التداخل هو الذي يقدم مفتاح فهم كل هذه الظواهر التي كانت **للوهلة الاولى** تبدو مناقضة للاطروحة الاساسية للماديةالتاريخية.

---

* فلنأخذ العبودية كمثال على ذلك . ففي مستوى معين من التطور تقوم العبودية **بحضانة نمو القوى المنتجة** ، وعندئذ تبدأ **باعاقة هذا النمو** . ان **اختفاءها** بين الشعوب المتمدنة في الغرب يرجع الى **التطور الاقتصادي** لهذه الشعوب . (فيما يتعلق بالعبودية في العالم القديم ، أنظر كتاب البروفيسور سيكوتي **المتع** Il Tramento Della Schiavitu يقول سبيك في كتابه « سجل اكتشاف مصادر نهر النيل ١٨٦٣ » ان العبيد يعتبرون بين الزنوج غير شرفاء وجاحدين في هربهم من سيد يدفع لهم أموالا . ويمكن أن نضيف الى هذا أن هؤلاء **العبيد** يعتبرون ظرفهم أكثر شرفا من العامل المأجور . ان مثل هذه النظرة تتطابق مع الشكل الذي تكون فيه « العبودية ظاهرة تقدمية » .

ان كل ما قاله « نقاد » ماركس عن النظرةالاحادية الجانب المزعومة التي يلصقونها بالماركسية والتي تزعم أن الماركسية تغفل كل « العوامل » الاخرى للتطور الاجتماعي وتكتفي بالعامل الاقتصادي وحده ، سببه الفشل في فهم الدور الذي أولاه ماركس وانجلز **للتداخل بين « القاعدة » و « البناء الفوقي »** . وحتى نتحقق ، كيف أن ماركس وانجلز لم يتجاهلا أهمية العامل السياسي ، مثلا ، يكفي أن نقرأ هذه الصفحات من **البيان الشيوعي** التي تتعلق بالحركة التحررية للطبقة البرجوازية . انهما يخبراننا في هذه الصفحات ان البرجوازية كانت :

« طبقة مضطهدة تحت عسف الاقطاعيين واستبدادهم ، ثم جماعة مسلحة تدير نفسهابنفسهافيكومونة العصور الوسطى ؛ فهنا جمهورية مدينة مستقلة (كما في ايطاليا والمانيا) وهناك فئة ثالثة من المملكة (كما في فرنسا) تدفع الجزية ، ثم في عهد المانيفاكتورة كانت قوة توازن رحجان قوة النبلاء في الممالك ذات الحكم المقيد أو المطلق وحجر الزاوية للممالك الكبرى بوجه عام ، وأخيرا ، منذ أن توطدت الصناعة الحديثة والسوق العالمية ، استولت البرجوازية على كل السلطة السياسية في الدولة الحديثة التي تقوم على التمثيل . فالحكومة الحديثة ليست سوى لجنة لتنظيم الشؤون العامة للطبقة البرجوازية بأسرها » .

ان أهمية « العامل » السياسي قد تجلت هنا بكل وضوح حتى أن « بعض النقاد » قال ان هذا التشديد نفسه غير كاف . ولكن تأثير هذا « العامل » وقوته وكذلك طريقة عمله في كل فترة معينة من تطور البورجوازية ، قد ظهرت في **البيان** واضحة عبر مجرى التطور الاقتصادي ، وبالنتيجة فان **تنوع « العوامل » يشوش وحدة السبب الاساسي** .

ان العلاقـات السيـاسـيـة تؤثر تأثيرا مؤكدا في الحركـة الاقتصادية ، ولكن مما لا شك فيه **أن هذه العلاقات قبل أن تؤثر في تلك الحركة هي من خلق هذه الحركة .**

والشيء نفسه يجب أن يقال عن **ذهنية الانسان** ككائـن اجتماعي ، وهذا ما يدعـوه ستاملر بشـكل أحادي الجانب **مفهومات اجتماعية** . ويقدم **البيان** حجة دامغة على أن مؤلفيه كانا مدركين لاهمية « العامل » الايديولوجي . وعلى أي حال فاننـا نرى أن العامل « الايديولوجي » وان كان يلعب دورا هاما في تطور المجتمع، **ليس هو نفسه سوى مخلوق سبق لذاك التطور أن خلقه.**

« عندما كان العالم القديـم يتمسـك بنظرياته الاخيرة ، كانت المسيحية تجتاح الاديـان القديمـة . وعندما استسلمت الافكار المسيحية في القرن الثامـن عشر لافكار المذهب العقلي ، خاض المجتمع الاقطاعي معركته المميتة مع البرجوازية الثوريـة وقتها » . وفيما يتعلق بهذا الخصوص نجد أن الفصل الختامي في **البيان** أكثر اقناعا . ان مؤلفيه يخبراننا ان الشيوعيين لا ينسون أبدا أن يبثوا في أذهان العمال الصراع العدائي المحتمل والواضح بين مصالح البرجوازية و البروليتاريا . ان من السهل ان نفهـم ان من لا يولي اهتماما ب « العامل » الايديولوجي ، لا يملك اساسا منطقيا لبث أي فكرة ، مهما كانت ، في أذهان أي فئة من الفئات الاجتماعيـة .

١٠ - تحريفية برنشتاين

لقد اقتبست من **البيان** ، وقدمته على كتب ماركس وانجلز الاخرى ، لانه يعود الى الفترة المبكرة من نشاطهما عندما - كما يؤكد لنا بعض النقاد - كانا بشكل خاص يفهمان فهما أحادي الجانب العلاقة بين « عوامل » التطور الاجتماعي . ومن الواضح جدا ، على أي حال ، انهما في تلك الفترة أيضا كانا يتميزان لا بالنظرة « **الاحادية الجانب** » بل بالنضال ضد **الواحدية** ، والكره **للاكليريكية** كما ظهرت في ملاحظات « نقادهما » .

ولم يرجع النقاد الى رسالتين لانجلز طبعتا في صحيفة (الاشتراكي الديمقراطي) . احدى هاتين الرسالتين كتبت في عام ١٨٩٠ ، والاخرى كتبت في عام ١٨٩٤ ، فكان هناك وقت كاف أمام السيد برنشتاين ليفعل ما يشاء بهاتين الرسالتين اللتين ، كما يظن ، تتضمنان شهادة واضحة عن التطور الذي حصل ، بمرور الايام ، في آراء صديق ماركس وشريكه . وقد أخذ مقطعين من هاتين الرسالتين ، اعتقد انهما أكثر اقناعا في هذا المجال . وأرى من الضروري ان أعيد المقطعين هنا ، لاثبت عكس ما أراد السيد برنشتاين اثباته .

هذا هو أحد هذين المقطعين : « وهكذا نجد ثمة قوى متقاطعة لا حصر لها ، ومجموعة معينة من متوازيات الاضلاع للقوى هي التي تعطي **النتائج** ، أي الحدث التاريخي . وهذه

نفسها يمكن اعادة النظر فيها كنتائج للقوة تتضارب مع بعضها ، وما يظهر هو شيء آخر لم يرغب فيه أحد » (رسالة عام ١٨٩٠).

وهذا هو المقطع الثاني : « ان التطور السياسي والقضائي والفلسفي والديني والادبي والفني ... الخ يقوم على تطور اقتصادي . ولكن كل واحد من هذه التطورات يؤثر في الآخر ، وفي الاساس الاقتصادي أيضا » . (رسالة عام ١٨٩٤) . ويرى السيد برنشتاين أن « هذه الاصوات تختلف الى حد ما » عن مقدمة نقد الاقتصاد السياسي ، التي تتحدث عن الرابط بين « الاساس » الاقتصادي و « البناء الفوقي » الذي يقوم عليه . ولكن بأي جهة يقع الاختلاف ؟ ان ما قيل في المقدمة يتكرر هنا بالضبط ، أي ان التطور السياسي وبقية الانواع انما تعتمد على التطور الاقتصادي . ويبدو ان السيد برنشتاين قد ضللته الكلمات التالية : « ولكن كل واحد من هذه التطورات يؤثر في الآخر ، وفي الاساس الاقتصادي أيضا . ويبدو أن السيد برنشتاين نفسه فهم مقدمة نقد الاقتصاد السياسي فهما مغايرا ، أي بمعنى ان « البناء الفوقي » الاجتماعي والايديولوجي الذي نما فوق « الاساس » الاقتصادي لا يمارس بدوره تأثيرا على « الاساس ». وقد عرفنا من قبل أن لا شيء أكثر خطأ من مثل هذا الفهم لفكرة ماركس . ويمكن لهؤلاء الذين لاحظوا أمثلة السيد برنشتاين « النقدية » أن يهزوا اكتافهم عندما يرون انسانا أخذ على عاتقه جعل الماركسية شعبية، يعجز عن فهم الامور الاولية لهذا المذهب.

وثانية الرسالتين اللتين اقتبس منهما السيد برنشتاين ، تتضمن مقاطع ، على جانب كبير من الاهمية ، لفهم الدلالة السببية لنظرية ماركس وانجلز التاريخية ، أكثر من الاسطر التي

أثبتها ، والتي فهمها السيد برنشتاين فهما سقيما . واحد هذه المقاطع جاء فيه ما يلي : « وليس كما يحاول بعض الناس هنا وهناك أن يتوهموا أن الوضع الاقتصادي يؤدي الى تأثير اوتوماتيكي مباشر . كلا ، فالناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم ، وهم يصنعونه فقط في ظرف معين ، وعلى أساس العلاقات الفعلية الموجودة سابقا ، ومن بينها العلاقات الاقتصادية ، التي مهما كان تأثيرها ، فان العلاقات السياسية والايديولوجية لا تزال علاقات ذات أثر حاسم ، وتشكل الفكرة الاساسية التي تنتشر بينهم والتي تقود وحدها الى الفهم ... » .

ان السيد برنشتاين نفسه ، كما ترى ، كان في أيام سيرته « الارثوذكسية » من بين الناس « هنا وهناك » الذين شرحوا المذهب التاريخي لماركس وانجلز بمعنى ان « تاريخ الوضع الاقتصادي يؤدي الى تأثير اوتوماتيكي » . ويشمل هذا أيضا العديد جدا من « نقاد » ماركس الذين تحولوا **« من الماركسية الى المثالية »** . ان هؤلاء المفكرين العميقين يفصحون عن كفاءة ذاتية عندما يقارنون « أحادية » نظرة ماركس وانجلز بالصيغة القائلة ان التاريخ يصنعه الناس وليس الحركة الاوتوماتيكية للاقتصاد . وفي اقتباسهم من ماركس يخطئون فعلا في هذا الاقتباس ولا يشكون قط في أن **« ماركس » الذي يقومون ب « نقده »** لا صلة له البتة بماركس الحقيقي ، اذا إستثنينا الاسم ، ما دام هو خالق الجوانب الاحادية العديدة غير المفهومة للموضوع . ومن الطبيعي أن «نقادا » من أمثال هذا العيار . يعجزون قطعا عن « تكملة » أي شيء في المادية التاريخية أو « تعديله » . وأنا بالتالي لن أقف عندهم بعد الآن أكثر مما وقفت وسأتخطاهم الى « مؤسسي » تلك النظرية .

ان من الهام جدا أن نلاحظ أن انجلز عندما رفض قبيل وفاته الفهم « الاتوماتيكي » لعملية الاقتصاد التاريخية ، **كان يقرر فقط (وغالبا بالكلمات نفسها) ويشرح ما كتبه ماركس من زمن بعيد ١٨٤٥ ، في الاطروحة الثالثة عن فيورباخ التي سبق أن اقتبسناها من قبل** . « ففيها أخذ ماركس على الماديين السابقين نسيانهم انه اذا كان الناس نتاج الظروف ... فان الناس انفسهم هم الذين يغيرون هذه الظروف » . وبالتالي تقوم ، بالضبط ، مهمة المادية في مجال التاريخ ، كما فهمه ماركس في تفسير ما يلي: **في أي طريقة يمكن لهذه « الظروف » أن يغيرها أولئك الذين هم أنفسهم من خلقها ؟** . وقد حلت هذه القضية بالعودة الى علاقات الانتاج التي تتطور تحت تأثير شروط مستقلة عن ارادة الانسان . ان علاقات الانتاج هي **العلاقات بين الكائنات البشرية** في العملية الاجتماعية للانتاج . والقول **ان علاقات الانتاج قد تغيرت ، يعني أن العلاقات المتبادلة قد تغيرت بين الناس** المنهمكين في تلك العملية . واذا حصل تغير ما في هذه العلاقات ، فانه لا يحتل مكانه « أوتوماتيكيا » أي **مستقلا عن النشاط الانساني ، لان هذه العلاقات عبارة عن علاقات توطدت بين الناس في عملية نشاطاتهم.**

ولكن هذه العلاقات يمكن أن تخضع لتغيرات ــ وغالبا ما تخضع بالفعل لتغيرات ــ بشكل مباشر بعيدا عن تلك التغيرات التي **يرغب الناس** فيها . وتعتمد سمة « البناء الاقتصادي » والاتجاه الذي تتغير فيه هذه السمة ، ليس على الارادة البشرية، بل على حالة القوى المنتجة وعلى التغيرات النوعية في علاقات الانتاج التي تحتل مكانها وتصبح ضرورية للمجتمع نتيجة لتطور أشد لهذه القوى المنتجة . ويشرح أنجلز هذا بالكلمات التالية : « ان الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم ، ولكن ليس بارادة جماعية طبقا لخطة مشتركة ، أو حتى في مجتمع معين ويسير

وفق مخطط . ان مطامحهم تتصادم ـ ولهذا السبب فان كل أمثال هذه المجتمعات تحكمها **الضرورة** ـ مع شكل الظهور الذي هو ظهور **فجائي** » . هنا نجد أن النشاط الانساني نفسه محدد ككائن ليس حرا ، ولكنه **ضروري** ، أي ككائن **منسجم مع القانون** ولذلك **يمكن أن يغدو موضوع دراسة** علميـة . وهكذا نجد أن المادية التاريخية في الوقت الذي تنادي فيه بأن تلك الظروف يغيرها الناس ، تمكننا ، في الوقت نفسه ، من **اختبار عملية هذا التغير اختبارا ينطلق من موقف علمي** . وهذا هو السبب في اننا على حق عندما نقول ان التفسير المادي للتاريخ يثبت ضرورة **النقد لاي مذهب حول المجتمع الانساني يدعي أنه علمي** .

وهذا أمر حقيقي بحيث ان دراسة أي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية في الوقت الراهن ، تتطلب **مضمونا علميا** فقط بالمقياس الذي يقترب فيه أكثر فأكثر من التفسير **المادي** للحياة . ورغم « **الانتعاش** » المغرور للمثالية في العلوم الاجتماعية ، فان ذلك التفسير يصبح عاما أكثر فأكثر ، حيث يمنع الباحثون أنفسهم من الانغماس في الحذلقة والتأمل الثقافي للفكرة «المثالية»، ويأخذون على عاتقهم المهمة العلمية في اكتشاف الروابط السببية بين الظواهر . واليوم نجد ان ليس الذين لا يعتنقون النظرة المادية في التاريخ وحدهم فقط ، بل حتى أولئك الذين لا يملكون أي فكرة بسيطة عن هذه النظرة ، يبرهنون على أنفسهم انهم ماديون في أبحاثهم التاريخية . ولا شك أن جهلهم هذه النظرة ، وعداءهم لها ، وهو ما يعوقهم عن فهم كل مظاهرها ، يقودهم الى المفهومات الضيقة والاحادية الجانب .

١١ ـ قضية العوامل وتداخلها

هنا تجد ايضاحا جيدا . فمنذ عشر سنوات مضت طبع الفرد سبيناز الباحث الفرنسي المشهور (وهو عدو لدود للاشتراكيين المعاصرين) « دراسة اجتماعية » هامة بعنوان (أصل التكنولوجيا) . والمؤلف في هذا الكتاب ، يدرس ـ منطلقا من الفرضية المادية القائلة ان **النشاط العملي** يسبق دائما النظرية في تاريخ البشرية ـ تأثير **التكنولوجيا** في تطور **الايديولوجيا ، أو** الفلسفة في اليونان القديمة . وهو يصل الى النتيجة التالية : في كل فترة من فترات التطور كانت نظرة اليونان القدماء تحددها الحالة العامة لقواهم المنتجة . ان هذه ولا شك نتيجة باهرة وعلى جانب كبير من الاهمية ، ولكن أي امرىء اعتاد أن يطبق بوعي المادية على تفسير الاحداث التاريخية سوف يجد ، لدى قراءته « دراسة » اسبيناز ، ان الرأي الذي عبر عنه في كتابه هو رأي أحادي الجانب . ولسبب بسيط لم يول الباحث الفرنسي اهتماما خاصا ب « العوامل » الاخرى في تطور الايديولوجيا ، **كالصراع الطبقي** مثلا . مع أن « العامل » الاخير ـ أي الصراع بين الطبقات ـ ذو اهمية استثنائية فعلا .

في المجتمع البدائي ، الذي لم يعرف انقسام الطبقات ، تمارس النشاطات الانتاجية للانسان تأثيرا **مباشرا** على نظرته وذوقه الجمالي . ان الشارة الزخرفية التي تصور دوافعه من التكنولوجيا والرقص ـ ويمثل الفن أهمية كبرى في مثل هذا المجتمع ـ تقليد لعملية الانتاج في الغالب . ويلاحظ هذا بشكل

خاص لدى قبائل الصيد ، التي تقف في أدنى مستوى من التطور الاقتصادي* . وهذا هو السبب الذي جعلني أرجع اليهم عندما ناقشت قضية اعتماد **ذهنية** الانسان البدائي على **نشاطاته في الاقتصاد** الذي يعمل فيه . وعلى أي حال فان تأثير هذه النشاطات **المباشر** في مجتمع ينقسم الى طبقات يصبح أقل تمايزا وادراكا . وهذا أمر مفهوم . فمثلا لو أن رقصات احدى النساء البدائيات في استراليا مثلت في ادائها عمل **جمع الجذور** ، لما أمكن القول أن الرقصات الجميلة التي كانت سيدات القرن الثامن عشر الفرنسيات يمتعن بها أنفسهن ، يمكن **أن** تصور **العمل المنتج** لاولئك السيدات، ما دمن لا يشتغلن بمثل هذا العمل ، بل يفضلن بشكل عام أن يتفرغن لـ « علم **العاطفة الدقيقة** » . ولفهم رقص المرأة الاسترالية الاصيلة يكفي أن نعرف الدور **الذي** لعبته في حياة القبيلة الاسترالية جماهير النساء في جمع الجذور البرية . أما اذا أردنا ان نفهم رقصة المينويت **مثلا** ، فلا يكفي أبدا معرفة اقتصاد فرنسا في القرن الثامن عشر . **علينا هنا أن** نأخذ الرقص باعتباره معبرا عن **نفسية طبقة غير منتجة** . ونفسية من **هذا النوع** تحسب حساب الغالبية العظمى لـ « **عادات وتقاليد** » ما يسمى **المجتمع** المتاز . وبالتالي فان « العامل » **الاقتصادي** في هذه الحالة يحتل

---

* لقد سبقت مرحلة الصيد مرحلة الجمع . فمرحلة جمع الفواكه والجذور كانت قبل مرحلة الصيد . ولكن القبائل المتوحشة التي نعرفها قد مرت جميعها بهذه المرحلة .

(ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠)

يقول انجلز في كتابه عن أصل الاسرة أن الشعوب الصائدة لم توجد الا في تصور الباحثين . فقد كان الصيادون جماعي فواكه وجذور في الوقت نفسه . وعلى أي حال فان للصيد ، كما رأينا ، تأثيرا بعيدا جدا في تطور آراء هذه الشعوب ومشاريعها .

المرتبة الثانوية بالنسبة للعامل النفسي . ويجب ألا ننسى ، على أي حال،ان ظهور طبقات غير منتجة في مجتمع ما هو نتيجة التطور الاقتصادي لهذا المجتمع . ولذلك فان « العامل » الاقتصادي يحتفظ بأهميته الكبرى حتى عندما يكون ثانويا بالنسبة للعوامل الاخرى . وفوق ذلك فان هذه الاهمية لا بد أن تظهر ، لانها ستكون عندئذ هي التي تقرر **امكانية تأثير « العوامل »** الاخرى وحدودها* .

ليس الامر كذلك ابدا . فحتى عندما تشارك الطبقة العليا في عملية الانتاج كقوة قائدة ، تنظر هذه الطبقة الى الطبقة الدنيا باحتقار لا يخفى ، ولا تخجل من اظهاره . ان هذا أيضا ينعكس في ايديولوجيات كلا الطبقتين . جاء في **خرافات** القرون الوسطى الفرنسية ، وعلى الاخص في « أغنية عن المضطهدين » ، تصوير لفلاح ذلك الوقت بطريقة فجة تماما . وقد جاء في هذه الاغنية وصف هؤلاء الفلاحين :

ما أقبح شكل الفلاحين !
فلا أقبح من ذلك يمكن أن يرى المرء

---

* ونقدم الى القارىء مثالا من حقل آخر . فللعامل (السكاني) كما يدعوه إ ـ كوست (أنظر كتابه : « عوامل السكان في التطور الاجتماعي » ، باريس ١٩٠١) تأثير كبير جدا ولا شك في التطور الاجتماعي . ولكن ماركس على حق مطلق في قوله أن القوانين المجردة للتكاثر موجودة فقط في عالمي النبات والحيوان . أما في المجتمع البشري فان التكاثر والانقراض في السكان يعتمد على تنظيم المجتمع ، الذي يقرره بناؤه الاقتصادي . فلا « قانون مجرد » للسكان يمكن أن يفسر أي شيء ، لان الواقع ان نمو سكان فرنسا المعاصرة بالكاد يلاحظ . ان هؤلاء الباحثين الاجتماعيين والاقتصاديين الذين يرون في تكاثر السكان السبب **الاولى** للتطور الاجتماعي ، لعلى خطأ جسيم . (أنظر كتاب أ ـ لوريا :
la legge di popolizione ed it sistema sociale

كل واحد منهم تبلغ قامته خمسة عشر قدمـا
وبعضهم يشبه المردة
ولكنهم جميعا قبيحون ،
ولهم سنامان في المقدمة والمؤخرة .

وبالطبع ينظر الفلاحون الى أنفسهم نظرة مغايرة . واحتقارا لغطرسة السادة الاقطاعيين يغنون :

بشر نحن مثلهم تمامـا
ونشعر بالالم تماما كما يشعرون

وفي هذه الاغنيـة يسألون :

عندما كان آدم يحفر وحواء تغيس
من كان منهما السـيد ؟

وباختصار ، ان كل طبقة من هاتين الطبقتين ينظـر الى الامور من وجهة نظرها الخاصة، التي يحددها وضعها في المجتمع. ان نفسية هذين الجانبين المتصارعين يلونهـا الصراع الطبقي . هكذا ــ بالطبع ــ كانت القضية ، ليس فقط في العصور الوسطى فقط ولا في فرنسا وحدها . وكلما ازدادت حدة الصراع الطبقي في قطر معين في زمن معين اشتد تأثير هذا الصراع في نفسـية الطبقات المتنازعة . ان على من يدرس تاريخ الايديولوجيات في مجتمع منقسم الى طبقات ، ان يأخذ بعين الاعتبار هذا التأثير ، والا سيذهب عمله ادراج الرياح . حـاول أن تقـدم تفسـيرا **اقتصاديا** جامدا لحقيقة ظهور مدرسة دافيد في الرسم في فرنسا

خلال القرن الثامن عشر ، نجد أنك لا تجني من مشروعك هـــذا سوى هراء مضحك . ولكنك ان اعتبرت تلك المدرسة انعكاســا ايديولوجيــا للصراع الطبقي في المجتمع الفرنسي عشية الثـورة الكبرى ، فانك تجد أن للقضية مظهرا مختلفا جدا . فحتى مثل هذه السمات في فن دافيد التي ، كما يبدو ، تبعد بعداً قصيــا عن الاقتصاد الاجتماعي المرتبطة به ، سوف تصبح ، عندئذ ، مفهومة تماما .

ويمكن أن يقال الشيء ذاته في تاريخ ايديولوجيات اليونان القديمة ، التاريخ الذي نجد فيه معاناة للصراع الطبقي . تلـك المعاناة التي لم تظهر ظهورا كافيــا في دراسة اسبيناز الممتعة ، وبالتالي جاءت نتائجه الهامة متسمة بالانحياز الى حد ما . مثل هذه الامثلة يمكن أن يقتبسها عدد غير قليل ، وهــي تظهــر أن تأثير مادية ماركس على عدة خبراء معاصرين ذو قيمة كبيرة بمعنى أن هذا التأثير **سيعلمهم أيضا ان يضعوا في حسابهم « العوامل » الاخرى غير العوامل التكنيكية والاقتصادية** . ولن تدهشـــنا هذه الاصوات المتناقضة ، مع أنها حقيقة مقبولة ، اذا تذكرنا أن ماركس مع أنه يفسر كل حركة اجتماعية على أنها حصيلة للتطور الاقتصادي للمجتمع ، يفسر تلك الحركة على أنها **النتيجة المطلقة** ، أي أنه يسلم بأن عدة « عوامل » مختلفة اخرى تمارس عملها في تلك الاثناء .

٢١ ـ هل يمكن تفسير تاريخ الافكار بالصراع الطبقي فقط ؟

وثمة تيار آخر ، يتعارض كليا مع التيار الذي سبق ورأيناه عند اسبيناز ، بدأ يفصح عن نفسه في العلم المعاصر ـ وهو اتجاه لتفسير تاريخ الافكار عن طريق دراسة تأثير الصراع الطبقي فقط . هذا التيار الجديد كل الجدة وغير الواضح ظهر تحت التأثير المباشر للمادية التاريخية الماركسية . ونجد هذا التيار في مؤلفات الكاتب اليوناني إ ـ اليوثيروبولوس الذي طبع في عام (١٩٠٠) كتابه الاساسي **الاقتصاد والفلسفة** . ١ ـ الفلسفة ومفهوم الحياة لدى اليونان اعتمادا على الاحوال الاجتماعية . و ٢ ـ الفلسفة ومفهوم الحياة لدى الشعوب الرومانية الجرمانية .

ان اليوثيروبولوس مقتنع ان فلسفة أي فترة معينة تعبر عن النظرة النوعية لهذه الفترة وآرائها في الحياة . واذا أردنا أن نتحدث بشكل خاص ، قلنا لا شيء جديد في هذا الكلام . لقد سبق لهيغل أن قال ان كل فلسفة هي تعبير ايديولوجي عن عصرها فقط . ان ما يحدد خصائص الفترات المختلفة ، والوجوه المتطابقة في تطور الفلسفة ، بالنسبة لهيغل ، هو حركة الفكرة المطلقة ، بينما بالنسبة لاليوثيروبولوس تتحدد أي فترة معينة ، أولا وقبل كل شيء ، بالظرف الاقتصادي . ان اقتصاد أي شعب يحدد « فهمه العام للحياة » ، هذا الفهم الذي يجد تعبيرا عنه ، قبل كل شيء ، في فلسفة هذا الشعب . وأي تغير في الاساس الاقتصادي للمجتمع يتبعه تغير في البناء الفوقي الايديولوجي أيضا ، وطالما أن التطور يؤدي الى انقسام المجتمع الى طبقات ،

والى صراع هذه الطبقات فان « النظرة الى الحياة ، العائدة الى مرحلة معينة لا تتطابق في صفتها العامة . انها تتنوع في الطبقات المختلفة وتخضع للتغير طبقا لوضع الطبقات وحاجاتها وطموحها ومجرى صراعها الطبقي المتبادل .

هكذا كانت النظرة التي انطلق منها اليوثيروبولوس في معالجته كل تاريخ الفلسفة . ان الوضوح الذاتي لتلك النظرة جعلها تسترعي الانتباه وتنال الاستحسان . وبالنسبة لمرحلة معينة ليس ثمة اعتبار في الادب الفلسفي لعدم التطابق مع النظرة المألوفة في تاريخ الفلسفة كتبني الانظمة الفلسفية فقط . وفي مجلد طبع في الثمانينات ويعالج طريق دراسة تاريخ الفلسفة ، أعلن الكاتب الفرنسي الشهير (بيكانيت) أننا اذا ما أخذنا هذا بحد ذاته فان تبني هذا النوع لا يفسر الا الامر القليل جدا* . ان ظهور كتاب اليوثيروبولوس يرحب به كخطوة جديدة في دراسة تاريخ الفلسفة ، وكانتصار للفلسفة المادية في تطبيقها على أيديولوجيا بعيدة عن الاقتصاد . ولكن للاسف لم يظهر اليوثيروبولوس مهارة في استخدام الطريقة الديالكتيكية لتلك المادية ، لقد بسط جدا القضايا التي واجهته ، ولهذا السبب وحده فشل في تقديم أي حلول أخرى غير الحلول الاحادية ولذلك فهي غير مقنعة . ولنستشهد بتقويمه لاكسوفانس . ففي رأي اليوثيروبولوس أن اكسوفانس عبر ، في عالم الفلسفة ، عن مطامح البروليتاريا اليونانية . لقد كان روسو عصره** . لقد أراد اصلاحا اجتماعيا يشمل مساواة المواطنين ووحدتهم ، ومذهبه في **وحدة الكائن** كان فقط عبارة عن أساس نظري لمشروعاته

---

* « تاريخ الفلسفة ، ما كان عليه وما يمكن أن يكون » باريس ١٨٨٨ .

** الاقتصاد والفلسفة .

الاصلاحية . ومن هذا الاساس النظري لمطامح اكسوفانس الاصلاحية تطورت كل تفصيلات فلسفته ، ابتداء من رأيه في الله، وانتهاء بمذهبه في خداع التصورات التي نتلقاها من خلال احساساتنا .

ويقول اليوثيروبولوس ان فلسفة هيراكليت الغامض نتيجة عن ردة فعل الارستقراطية ضد المطامح الثورية للبروليتاريا اليونانية. وحسب تلك الفلسفة تعتبر المساواة الشاملة مستحيلة، لان الطبيعة نفسها جعلت الناس غير متساوين . يجب ان يرضى كل انسان بنصيبه . وليس قلب النظام القائم هو ما يجب أن يطمح فيه في الدولة ، وانما انهاء استخدام السلطة استخداما أرعن ، وهذا ممكن تحت حكم **الاقلية** أو تحت حكم **الجماهير** . ان السلطة يجب أن ترجع الى **القانون** ، الذي هو تعبير عن **القانون الالهي** . ان **الوحدة** ليست محرمة في **القانون الالهي** ولكن الوحدة المطابقة لهذه الاخيرة هي **وحدة المتضادات** . ان اعداد مشاريع اكسوفانس هو دعوة للقانون المقدس . ان هيراكليت بتطويره وتثبيته هذه الفكرة ، أبدع مذهبه الديالكتيكي في الصيرورة .

ذلك ما يقوله اليوثيروبولوس . ان ضيق الوقت يمنعني من الاتيان بأمثلة أكثر عن تحليله للاسباب التي تقرر تطور الفلسفة . ولا حاجة ابدا تدعو الى ذلك . إن القارىء ، كما آمل ، سوف يرى بنفسه ان تحليله غير مرض . ان عملية تطور الافكار (الايديولوجيات) هي ، بشكل عام ، اكثر تعقيدا بكثير مما تصور اليوثيروبولوس* . وعندما تقرأ طرفه المبسطة عن تأثير الصراع

---

* لا حاجة بنا الى القول أن اليوثيروبولوس ، في رجوعه الى اقتصاد اليونان القديمة ، لا يقدم تمثيلا له ، فقد حصر نفسه بالاحوال العامة التي هي هنا ، وغير هنا ، لا تفسر شيئا .

الطبقي في تاريخ الفلسفة ، تشعر بالندم لانه يبدو جاهلا تماما بكتاب اسبيناز المشار اليه سابقا . والذي يتصف بالنظرة الاحادية الجانب، ولو أنه احتال على نظرته الاحادية هذه لكان من الممكن أن يقدم معالجة جيدة وصحيحة في تحليله .

وعلى أي حال ، فان محاولة اليوثيروبولوس الفاشلة لالقاء ضوء على تاريخ الفلسفة تثبت مرة أخرى القضية التي لم يتوقعها العديد ـ القائلة أن التمثل الاكثر عمقا لمادية ماركس التاريخية ، سوف يكون مفيدا كثيرا للعديد من الباحثين المعاصرين ، لان هذا بالضبط **سوف ينقذهم من النظرة الاحادية الجانب** . لقد عرف اليوثيروبولوس تلك المادية ولكن معرفته ظلت سقيمة . لقد انحرف جدا ، وقد حرفه ذلك « **التصحيح** » الذي اعتقد ان من الانسب ادخاله على المادية .

ويلاحظ ان العلاقات الاقتصادية لشعب معين تقرر فقط « **ضرورة تطوره** » . ضرورة تطوره هي قضية ذاتية اذ أن « فهم هذا الشعب للحياة والكون » يقرره بمضمونه ، أولا : سمة هذا الشعب وسمة القطر الذي يسكن فيه . ثانيا حاجاته ، وثالثا : الصفات الشخصية لاولئك الذين ظهروا من وسط هذا المجتمع كمصلحين . وبهذا المعنى فقط ، طبقا لا ليوثيروبولوس ، يمكننا التحدث عن علاقة الفلسفة بالاقتصاد . ان الفلسفة تحقق مطالب عصرها ، وتحقق ذلك بالتطابق مع شخصية الفيلسوف :

يفكر اليوثيروبولوس ان رأيه في علاقة الفلسفة بالاقتصاد يختلف عن رأي ماركس وانجلز المادي . ويرتئي ان من الضرورة وضع اسم جديد لتفسيره التاريخ فيسميه **النظرية اليونانية في الصيرورة** . ان هذا بكل بساطة أمر مضحك ، وكل ما يمكن أن يقوله المرء في هذا الخصوص هو ان « النظرية اليونانية في

الصيرورة » ، التي ليست في الواقع اكثر من عقل سقيم وتفسير سمج للمادية التاريخية ، هي عبارة عن **وعود** أبعد من أن يكون اليوثيروبولوس قد **قدمها** عندما ينتقل من وصف طريقته الى تطبيقها ، لانه عندئذ فقط ينفصل انفصالا تاما عن ماركس .

أما عن « شخصية الفيلسوف » أو ، بشكل عام ، أي شخص يترك أثرا في تاريخ الجنس البشري ، فان هؤلاء الذين يتصورون ان نظرية ماركس وانجلز لا مكان فيها لهذه القضية ، يخطئون خطأ فادحا . ان فيها مكانا لذلك ، ولكنها في الوقت نفسه قادرة على تجنب **التعارض** المحظور **لنشاطات أي « شخصية » مع مجرى الاحداث ، الذي تفرضه الضرورة الاقتصادية** . ان أي أمرىء يلجأ الى مثل هذا التعارض ، يدلل على أنه محدود الفهم للتفسير المادي للتاريخ . ان الاطروحة الاساسية للمادية التاريخية هي أن **التاريخ من صنع البشر** . ولانه كذلك فانه يظهر انه من صنع « رجال عظام » أيضا . بقي علينا فقط أن نحدد ما **الذي** يحدد نشاطات هؤلاء الرجال . والى القارىء ما كتبه انجلز في هذا الخصوص ، فقد جاء في احدى الرسالتين اللتين اقتبسنا منهما من قبل :

« ان هذا الرجل أو ذاك ، وبالضبط ذاك الرجل الذي يظهر في عصر معين ، هو بالطبع صدفة محضة . ولكن اخرجه واحذفه تجد أن هناك طلبا لبديل ، وسيكون هناك بديل ، جيدا كان أم سيئا ، ولكن مع مرور الايام سوف يوجد هذا البديل . ان الصدفة هي التي جعلت من الضروري ان يكون نابليون ، ذلك الكورسيكي الدكتاتور العسكري الذي طلبته الجمهورية الفرنسية التي أنهكتها حروبها الخاصة ، ولكن لو لم يكن هناك نابليون ، فسوف يظهر نابليون آخر يشغل مكانه ، ويعزز هذا حقيقة ان

الفرد دائما يظهر حالما تقتضي الضرورة ظهوره : مثل قيصر وأوغسطوس وكرومويل ... الخ . وعندما اكتشف ماركس المفهوم المادي للتاريخ ، أثبت تييري ومينيه وغيزو كل المؤرخين الانكليز حتى ١٨٥٠ انهم يجهدون لمثل هذا الاكتشاف ، واكتشاف مورغان لهذا المفهوم نفسه ، يثبت أن الوقت قد نضج وانه **لا بد** من اكتشافات هذا المفهوم . ويصدق هذا على كل الاحداث ، والاحداث العارضة في التاريخ . وكلما ابتعد المجال الخاص الذي ندرسه عن المجال الاقتصادي واقترب من الفكر المجرد المحض ، سوف نجد هذا المجال معرضا للاحداث في تطورها ، وسوف نجد أن خط الاحداث يجري في طريق متعرج ، ولكن اذا أنت ربطت المحور المعدل لهذا الخط ، فسوف نجد أنه يسير بشكل متواز لمحور التطور الاقتصادي مهما كانت المرحلة التي ندرسها طويلة وعريضة* » .

ان « شخصية » أي فرد اكتسب تمايزا في المجال الاجتماعي والروحي ، هو من بين تلك الأمثلة عن **الحدث** الذي لا يمنع ظهوره المحور « المعدل** » لتطور البشرية **الفكري** الذي يسير بخط مواز مع التطور **الاقتصادي** للبشرية . لو أن اليوثيروبولوس فهم ذلك على وجه أفضل ، لكان اولى اهتماما بنظرية ماركس التاريخية ، ولما تعلق كثيرا بنظريته « اليونانية*** » .

---

* مجلة الاكايمي الاشتراكي برلين ١٨٩٥ رقم ٢٠ ص ٣٧٤ .

** انظر مقالتي « حول دور الفرد في التاريخ » في كتابي « عشرون عاما » .

*** سماها النظرية « اليونانية » لان « طاليس » ـ كما يقول ـ قد وضع أطروحاتها الاساسية ثم جاء مفكر يوناني اخر فطورها ، أي ان اليوثيروبولوس هو هذا اليوناني الآخر .

ولا ضرورة لان أضيف اننا لانزال بعيدين عن أن نكون قادرين دائما على اكتشاف الرابط السببي بين ظهور النظرة الفلسفية المحددة ، والوضع الاقتصادي في مرحلة من المراحل . والسبب هو أننا نبدأ فقط بالعمل على الاقل في هذا الاتجاه ، فان كنا في وضع يمكننا من الاجابة عن كل الاسئلة ــ أو على الاقل معظم الاسئلة ــ التي تنهض في هذا الخصوص ، فان ذلك يعني أهمية حاسمة في هذه القضية ليس حقيقة **أننا لا نستطيع أن ننتصر على كل** الصعوبات التي تواجهنا في هذا الحقل ، فلا توجد ولا يمكن أن توجد تلك الطريقة التي يمكنها بضربة واحدة أن تحل كل الصعوبات التي تظهر في علم من العلوم ، بل ان الشيء المهم هو انه من السهل جدا على التفسير المادي للتاريخ ان يتغلب على هذه الصعوبات أكثر بكثيرمن التفسيرات المثالية والاكليريكية. وهذا مستخلص من واقع ان الفكر العلمي في مجال التاريخ قد أصبح يميل ميلا شديدا الى التفسير المادي للاحداث ، قد أصبح يبحث بالحاح عن هذا التفسير منذ عهد الاصلاح* . ولم يتوقف حتى اليوم الانجذاب نحو هذا التفسير والبحث عنه ، على الرغم من الاحتقار الرفيع الذي يظهره المفكر المحترم للبرجوازية اذ يسمع بكلمة **مادية** .

وثمة ايضاح ثالث للمحاولات الدؤوبة المعاصرة للعثور على تفسير مادي **لكل مظاهر الثقافة البشرية** قدمه كتاب فرانز فيورهيرد « نشوء أسلوب الاقتصاد السياسي » الجزء الاول ، برونسويك وليبزيغ ١٩٠٢ . « بالمطابقة مع سيطرة طريقة الانتاج ، وشكل الدولة المشروط بها ، تتحرك الثقافة البشرية في

---

* انظر مقدمتي للطبعة الثانية لترجمتي الروسية للبيان الشيوعي .

بعض الاتجاهات المستثناة من الاتجاهات الاخرى . ولذلك فان وجود أي اسلوب (في الفن ــ ج ، بليخانوف) يفترض مسبقا وجود شعب يعيش في شروط سياسية معينة ، وينهمك في الانتاج تحت علاقات انتاج معينة ، وله مثل عليا معينة . وفي الشروط المحدودة هذه ، يخلق الناس الاسلوب الملائم للضرورة الطبيعية ، وكما تتحول خيوط الكتان ، وكما ينقلب بروميد الفضة أسود ، ويظهر قوس قزح بين الغيوم كالشمس ، **كذلك** يخلق السبب كل هذه التأثيرات* » . كل هذا ، بالطبع ، صحيح ، والحالة التي عرفها **مؤرخو الفن** هي على جانب كبير من الفائدة . وعندما راح فيورهيرد يعزو منشأ الاساليب اليونانية المتنوعة الى الشروط الاقتصادية في اليونان القديمة ، لم يقدم سوى دراسة مخططة هو الآخر .ولا أدري فيما اذا كان الجزء الثاني من كتابه قد ظهر أم لا ؛ بيد أني لا أهتم بهذه القضية ، فأنا أعرف بجلاء مدى علمه السقيم بالطريقة المادية الحديثة. ان مناقشة فيورهيرد، في تخطيطيتها ، تذكرنا ببدائيينا الفريشيين والروزخوفيين الذين ، مثل فيورهيرد ، يمكن أن ننصحهم اولا وقبل كل شيء **أن يقوموا بدراسة المادية الحديثة** . ان الماركسية وحدها هي التي تنقذهم من الوقوع في **التخطيطية** .

---

* المرجع السابق ص ١٩ ــ ٢٠ .

١٣ ـ المادية التاريخية

صرح نيكولاي ميخائيليوفسكي مرة في معارضته لي أن نظرية ماركس التاريخية لم تحظ بالقبول في أوساط الباحثين . وقد رأينا للتو ، وسوف نرى مرة أخرى فيما يلي ، أن هذا التقرير ليس صحيحا تماما . ويجب علينا أولا ان نبعد بعض المفهومات الخاطئة الاخرى التي تحول دون فهم المادية التاريخية فهما دقيقا .

ان أردنا التعبير باختصار عن النظرة التي يعتنقها ماركس وانجلز آخذين بعين الاعتبار العلاقة بين « **الاساس** » المشهور عن هذه النظرة الآن و « البناء الفوقي » الذي هو الآخر ليس أقل شهرة ، فاننا نصل الى ما يلي :

١ ـ حالة القوى المنتجة .

٢ ـ العلاقات الاقتصادية التي تفرضها هذه القوى .

٣ ـ النظام الاجتماعي السياسي الذي تطور اعتمادا على « أساس » اقتصادي محدد .

٤ ـ ذهنية الناس الذين يعيشون في هذا المجتمع ، هذه الذهنية التي تحددها بشكل مباشر الشروط الاقتصادية القائمة ، ويحددها بشكل جزئي النظام الاجتماعي ـ السياسي القائم على ذاك الاساس .

٥ ـ **الايديولوجيات المختلفة** التي تعكس خصائص تلك الذهنية .

ان هذه الصيغة مفهومة الى درجة انها تتسع لكل «أشكال» الحركة التاريخية ، ولا تتضمن ، في الوقت نفسه ، أي شيء عن الاكليريكية العاجزة عن تجاوز « **التداخل** » بين القوى الاجتماعية المختلفة ، ولا تشك قطعا في **حقيقة** ان هذه القوى **بتداخلها** لا تقدم أي حل **لقضية أصل هذه القوى** . ان هذه الصيغة هي صيغة **واحدية** Monist ، وهذه الصيغة الواحدية مصطبغة جدا **بالمادية** . قال هيغل في كتابه **فلسفة الروح** أن الروح هي وحدها فقط المبدأ المحرك للتاريخ . ومن المستحيل أن يفكر المرء بغير هذا اذا كان يوافق على وجهة نظر **المثالية** التي تدعي أن **الفكر** هو الذي يقرر الكائن . ان مادية ماركس تبين بأي طريقة يحدد تاريخ الكائن تاريخ الفكر . وعلى أي حال فان مثالية هيغل لم تمنعه من الاقرار بالعوامل الاقتصادية كسبب « مشروط بتطور الروح » . وبالمقابل أيضا يمكن القول أن المادية لم تمنع ماركس من الاقرار بفعل « الروح » في التاريخ كقوة يحدد مجرى التطور الاقتصادي اتجاهها في أي عصر معين .

ان كل الايديولوجيات باحتوائها على أصل واحد مشترك ـ وهو روح العصر في القضية ـ لا يعني أن من الصعب فهمه ، فان أي امرىء يبذل جهدا ضئيلا في دراسة العوامل ، سوف يحقق ذلك . وكمثال على ذلك يمكننا الرجوع الى الرومانسية الفرنسية . فقد عمل فكتور هيغو وايوجين ديلاكروا وهكتور بيرليوز في ثلاثة مجالات من الفن مختلفة عن بعضها اختلافا شاسعا . وكل واحد من هؤلاء يختلف عن الآخر اختلافا كبيرا . ان هيغو ، مثلا ، لم يحب الموسيقى نهائيا بينما كان ديلاكروا ينظر الى الموسيقيين الرومانسيين نظرة فيها اعتبار ضئيل لهؤلاء

الموسيقيين . ومع هذا فان هناك مبررا كبيرا جدا لتسمية هؤلاء الرجال المشاهير الثلاثة باسم **ثلاثي الرومانسيين** ؛ ان مؤلفاتهم انعكاس لروح العصر ذاتها . ويمكن القول أن صورة « دانتي وفرجيل » لديلاكروا تعبير عن الطبع ذاته الذي املى فيه فكتور هيغو مسرحيته « هرناني » ، وكتب برليوز « السمفونيةالوهمية »، وقد شعر بهذا معاصروهم أي أولئك الذين ليسوا بعيدين عن الادب والفن . وقد سمي انفري ، وهو من متذوقي الكلاسيكية ، برليوز « الموسيقي المقيت والوحش وقاطع الطريق وعدو المسيح* ». ان هذا يذكرنا بالآراء المداهنة التي صدرت عن الكلاسيكيين في ديلاكروا ، فيشبهون فرشاته بمكنسة **السكير** . وكان برليوز ، مثل هيغو ، ميدانا لمعارك وحشية** . ومن الشائع أيضا انه حقق انتصارا بمجهود اكبر بكثير واطول جدا من فكتور هيغو . فلماذا جرى الامر على هذا الشكل ، رغم ان موسيقاه عبرت عن الروح نفسها التي عبرت عنها المسرحية الرومانسية والشعر الرومانسي ؟ وللجواب عن هذا السؤال ، من الضروري جدا أن نفهم العديد من التفصيلات في التاريخ المقارن للموسيقى والادب الفرنسيين*** ، هذه التفصيلات التي ظلت غير مشروحة زمنا

---

* أنظر Souvenir's dun Hugolatre بقلم اوغسطين شالافيل باريس ١٨٨٥ ص ٢٥٩ . ان انفري كشف في هذه الحالة عن عناد اكثر من ديلاكروا الذي ظل ، وهو الرسام الرومانسي ، يستحسن الموسيقى الكلاسيكية .

** المرجع السابق ٢٥٨ .

*** وعلى الاخص في التاريخ الذي أثر فيه كل جزء بالآخر في التعبير عن مزاج العصر . وكما نعلم ، فان ايديولوجيات عديدة وفروع مختلفة للايديولوجيا تتصدر شتى العصور . فمثلا لعب الكهنوت في العصور الوسطى دورا أهم بكثير مما يلعبه في الوقت الحاضر ، ولعب الرقص في المجتمع البدائي دورا كبيرا فكان أهم فن من فنون تلك المجتمعات بينما هو أبعد من أن يلعب مثل هذا الدور في أيامنا .. وهكذا ..

طويلا ، **ان لم نقل دائما** . ومما لا شك فيه ، على أي حـال ، ان روح الرومانسية الفرنسية يمكن أن نفهمها فقط اذا حاولنـا اعتبارها روح طبقة معينة تعيش في مجتمع معين وظروف تاريخية معينة* . يقول جان بابتست تيروسو « ان حركة الثلاثينات في الادب والفن كانت أبعد من أن تكتسب صفة الثورة الشعبية** » . ان هذا صحيح تماما . ان الحركة التي يشير اليها كانت حركة **برجوازية** في جوهرها . ولـكن هذا ليس كل شيء . ان الحركة لا تلقى تعاطفا عاما من البرجوازية نفسها . وفي رأي تيرسـو ، ان هـذه الحركة عبرت عن نخبة صغيرة (élites) كان فيهـا من بعد النظر ما مكنها من تقدير العبقرية مهما كانت مختبئة *** . ان هذه الكلمات سطحية طافية ، أي أنها تعبير مثـالي عن حقيقة ان البرجوازية الفرنسية في ذاك الزمن لم تفهم جيـدا ما طمح اليه مفكروها وشعروا به في مجال الادب والفن . ان هذه المفارقة

---

* يتضمن كتاب ارشيسينو (التصوين الفرنسي في القرن التاسع عشر : زعماء المدرسة دافيد ، غرو ، سيريكو ، ديكاميب ، أنغري ، ديلاكروا . باريس ١٨٨٣ ص ٢٧٨ - ٢٧٩) الملاحظة الذكية التـالية حول الروح العـامة للرومانسيين . يشير المؤلف الى أن الرومانسية أثبتت وجودها بعد الثورة وعودة الامبراطورية . « في الادب وفي الفن أزمة مشابهة لتلك التي حدثت في الاخلاق بعد عهد الارهاب - أي التبدل الحقيقي للاحاسيس . فالناس كانوا يعيشون في خوف ، وانقشع هذا الخوف . فارتموا في أحضان المتعة ، وقد انصب اهتمامهم على الاشكال والمظاهر الخارجية . السماء الزرقاء والاضواء الباهرة وجمال النساء والمخمل الفاخر والحرير الملون بقوس قزح ولمعـان الذهب وبريق اللالىء .. كل هذا ملأهم بهجة . فقد عاش الناس بعيونهم فقط ... لقد كفوا عن التفكير » . ان هذا وصف دقيق لروح العصر الذي نعيشه في روسيا . وفي كلا الامرين ، على أي حال ، نجد أن مجرى الاحداث الذي أدى الى هذه الحالة من الذهنية ، كان هو نفسه حصيلة مجرى آخر هو مجرى التطور الاقتصادي .

** انظر (هكتور برليوز ومجتمع عصرنا) باريس ١٩٠٤ ص ١٩٠ .

*** المرجع السابق ص ١٩٠ .

بين المفكرين (الايديولوجيين) والطبقة التي كانت تعبيرهم عن مطامحها ومشاربها نادرا جدا في التاريخ ، تفسر لنا الخصائص النوعية العديدة في التطور الفكري والفني للبشرية . كانت هذه المفارقة في القضية التي نناقشها السبب ، من بين أسباب أخرى ، لموقف الاستهجان الذي وقفته **النخبة** « المهذبة » تجاه «البرجوازية الخاملة » ـ موقف لا يزال يخدع السذج ويمنعهم كليا من التحقق من سمة البرجوازية العليا في الرومانسية* . ولكن هنا وغير هنا أيضا ، نجد ان أصل هذه المفارقة وسمتها يمكن ان تفسر تفسيرا دقيقا بالوضع الاقتصادي فقط ، بالدور الاقتصادي للطبقة الاجتماعية التي ظهرت وسطها هذه المفارقة. هنا وغير هنا أيضا يسلط **الكائن** الاضواء على « أسرار » الفكر . وهذا هو السبب في أن المادية وحدها هنا ، وغير هنا أيضا وأيضا ، هي القادرة على تقديم تفسير علمي لـ « مجرى الافكار ».

* هنا نرى الشيء نفسه الذي يجعل أنصار البرجوازية العليا كنيتشه يظهرون فعلا مضحكين عندما يهاجمون البرجوازية .

١٤ ـ نقــاد وعقبــــات

لم **يبرهن** المثاليون ، في الجهود المبذولــة لتفســير مجـرى الافكار ، على قدرة في النظر من نقطة « مجرى الاشياء » . وهكذا نجد « تين » يعتقد أن سمات بيئة الفنان هي التي يحسب لهـا حساب في الاثر الفني . ولكن الى أي سمات يرجع ؟. الى السمات النفسية أي الروح العامة للعصر الموضوع تحت البحث . ولكـن سمات هذا العصر نفسها بحاجة الى تفسير* . وعندما تفسر المادية روح مجتمع معين أو طبقة خاصة ، فانها تولي اهتمامها بالبناء الاجتماعي القائم على التطور الاقتصادي وهكذا ... ولكن تين ، الذي كان مثاليا ، حاول تفسير **أصل النظام الاجتماعي** عن طريق وسيط هو **الروح الاجتماعية** ، ولذا زج نفسه في تيه من التناقضات المستعصية . ان المثاليين في شتى الاصقاع لا يكنون الا قليلا مـن الود في هذه الايام لتين . والسبب في ذلك واضح كل الوضــوح : بالبيئة فهم **روح الجماهير** العامة ، روح « الرجل العــادي » في زمن معين وطبقة معينة . فبالنسبة اليه كانت « الروح » هــي المحكمة الاخيرة التي يلجأ اليها الباحث . وبالتالي فقــد آمــن ان الفرد ((**العظيم**)) يفكر ويشعر كما يفكر ويشــعر ((**الرجــل العادي**)) بتلقين من « الوسطاء » . ان هذا خطأ بالنظر الى الواقع، والى جانب ذلك فانه يسيء الى « مثقفي » البورجوازيـــة الذين

---

* « كتابات في الفن » . وفي هذا الكتاب يقول : « ان الاديب يحدد تحديدا كاملا الحـالة العامة لروح العادات الاخلاقية المحيطة به » .

يميلون دائما ، وان ميلا قليلا ، الى حشر انفسهم في عداد الرجال العظام . ان تين كان رجلا عاجزا عن أن يتقدم ويقول « ب » بعد أن قال « آ » ، وهكذا يدمر قضيته . والمخرج الوحيد من المتناقضات التي ورط نفسه فيها لا يكون الا من خلال المادية التاريخية التي تجد المكان المناسب لكل من « الفرد » و « البيئة » لكل من « الرجل العادي » و « الرجل الخطير » .

ومن الجدير بالذكر انه في فرنسا ، منذ العصور الوسطى وحتى عام ١٨٧١ ، نجد التطور الاجتماعي والسياسي والصراع بين الطبقات الاجتماعية يلخص اوضح الاشكال نموذجية لاوروبا الغربية ، فمن السهل أكثر من أي مكان آخر أن نكتشف الترابط السببي بين هذا التطور وذاك النضال ، من جهة ، وتاريخ الايديولوجيات من جهة أخرى .

وقد راح روبرت فلنت يقول متحدثا ، أثناء عهد الاصلاح في فرنسا ، عن السبب في أن أفكار المدرسة الفلسفية النظرية انتشرت بمثل هذه السرعة : « أن نجاح مثل هذه النظرية لن يكون محيرا ، فلم يكن السبيل الممهد اليها عن طريق حسية كوندياك ، ولم تكن مناسبة لخدمة حزب يمثل آراء الطبقات الكبرى للمجتمع الفرنسي قبل عهد الاصلاح أو بعده* » . انه محق في هذا طبعا . وانه لمن السهل ان نتحقق أي طبقة من الطبقات كانت مصالحها تجد التعبير الايديولوجي عنها في مدرسة نظرية . فدعنا ، على أي حال ، نوغل اكثر في التاريخ الفرنسي ونسأل أنفسنا : أليس ممكنا أن نكتشف الاسباب الاجتماعية للنجاح الذي حققته الحسية **قبل عهد فرنسا الثورية** ؟ ألم تكن الحركة الثقافية هي

---

* فلسفة التاريخ في فرنسا والمانيا . ادنبرغ ولندن ١٨٧٤ ص ١٤٩ .

التي أنتجت نظريي الحسية التي هي بدورها تعبير عن طموح طبقة اجتماعية خاصة ؟ . ان من المعروف ان **هذه القضية كانت** على الوجه التالي : ان هذه الحركة عبرت عن التطلعات التحررية « للطبقة الوسطى » الفرنسية* . واذا نحن تقدمنا في الاتجاه نفسه ، رأينا أن فلسفة ديكارت ، مثلا ، قدمت انعكاسا واضحا لمتطلبات التطور الاقتصادي ، وتماسك القوى الاجتماعية في عصره** . ولو رجعنا أخيرا حتى القرن الرابع عشر وأولينا اهتماما ، مثلا ، بقصص الفروسية ، التي لاقت قبولا وانتشارا في البلاط الفرنسي وبين الارستقراطيةالفرنسية لتلك الفترة،لما صعب علينا اكتشاف أن هذه القصص مرآة انعكست فيها حياة النظام الذي تتعلق به ومشاربه*** . وبكلمة ، ان مجرى الحركة الثقافية في هذا القطر المشهور ، الذي يمكنه الآن ان يعلن أنه « في طليعة الامم » ، يسير موازيا لمجرى التطور الاقتصادي ، وان التطور الاجتماعي السياسي مشروط بهذا التطور الاقتصادي .

---

* (ملاحظة فيالطبعة الالمانية ١٩١٠)

كتب ماركس في جدله ضد الاخوة بوير : « لم يكن عصر التنوير للقرن الثامن عشر ، وعلى الاخص المادية الفرنسية ، نضالا ضد المؤسسات السياسية القائمة والدين والاكليروس القائم فقط ، بل كان نضالا واضحا مكشوفا ضد ميتافيزيكية القرن السابع عشر ، وضد كل الميتافيزيكيات ، وعلى الاخص ميتافيزيكية ديكارت ومالبرانس وسبينوزا وليبنتز » (العائلة المقدسة ص ٢٣٢) . ان هذا أصبح معرفة مشاعة في هذه الايام .

** انظر في هذا الصدد كتاب لانسون « تاريخ الادب الفرنسي » باريس ١٨٩٦ ص ٣٩٤ – ٣٩٧ ، الذي يقدم تفسيرا واضحا للروابط بين بعض مظاهر فلسفة ديكارت ونفسية الطبقة الحاكمة في فرنسا خلال النصف الاول من القرن السابع عشر .

*** أعلن سيسموندي في كتابه « تاريخ الفرنسية ص ٥٩ » عن راي مصيب في أهمية هذه القصص ، رأي يقدم مواد أولية هامة للدراسة التقليد دراسة اجتماعية .

ومن وجهة النظر هذه يستفيد تاريخ الافكار (الايديولوجيا) في فرنسا فائدة خاصة من علم الاجتماع .

ان هذا شيء لم يأخذ عنه اقل فكرة أولئك الذين «انتقدوا» ماركس بشتى النغمات والابواب . انهم لم يفهموا ابدا أن هناك، رغم أن النقد ذو طريقة رائعة ، شيئا ضروريا لازما تحتاجه عندما تقدم على النقد وهذا الشيء هو **فهمك لما تنتقده** . وان نقدطريقة محددة للبحث العلمي يعني التقرير بأي درجة يمكن أن تساعدنا هذه الطريقة على اكتشاف الروابط السببية بين الظواهر . ان هذا شيء يمكن التأكد منه أثناء التجربة فقط ، اي أثناء تطبيق تلك الطريقة ، وانتقاد المادية التاريخية يعني اجراء محاكمة لطريقة ماركس وانجلز في دراسة الحركة التاريخية للجنس البشري . وعندئذ فقط يمكن التأكد من النقاط الضعيفة والنقاط القوية . « ان التحقق من المقانق انما يكون بأكلها » كما يقول أنجلز عندما يأخذ بشرح نظريته في المعرفة . ان هذا ينطبق على المادية التاريخية انطباقا كليا أيضا . فعليك لاختبار طريقة ماركس وانجلز ان تكون قادرا أولا وقبل كل شيء على استخدامها . واستخدامها باتقان يفترض مسبقا درجة عالية جدا من الاساس العلمي ، وجهدا ثقافيا عاليا أكثر من الحشو الانتقادي ـ الذاتي حول موضوع « أحادية » الماركسية .

يصرح « نقاد » ماركس ، بعضهم بأسف وبعضهم بندم وبعضهم بخبث، انه حتى هذا اليوم لم يظهر كتاب يتضمن البديل النظري الذي يحل محل المادية التاريخية . ويفهمون عادة من كلمة « كتاب » شيئا يشبه الكتيب المختصر في التاريخ العالمي وقد كتب من وجهة نظر المادية . ولا يمكن حاليا ، على أي حال ، لمثل هذا الدليل أن يكتبه بحاثة فرد ، مهما اتسع نطاق معرفته ،

أو مجموعة من الباحثين . ان المواد الكافية لذلك غير متوفرة بعد ، ولن تتوفر لوقت طويل . ان مثل هذه المواد يمكن ان تتجمع فقط عن طريق سلسلة طويلة من الابحاث في الحقول العلمية المعينة ، بمساعدة الطريقة الماركسية . وبكلمات أخرى ، ان هؤلاء «النقاد» الذين يطلبون « كتابا » انما يتمنون أن **يبدؤوا الامور من النهاية ،** أي انهم يريدون **تفسيرا اوليا** ، من **وجهة نظر المادية ، لتلك العملية التاريخية المشروحة** . وفي الواقع : ان « كتابا » يدافع عن المادية التاريخية سيكون مكتوبا بالدرجة التي تجبر فيه الحالة القائمة للعلوم الاجتماعية الباحثين المعاصرين — معظمهم كما قلت ، دون أن اتحقق من انهم يفعلون هذا — الى تأثيث تفسير مادي للظواهر التي يدرسونها . ان أمثال هؤلاء الباحثين ليسوا قلة في العدد ، فالامثلة التي أشرت اليها من قبل مقنعة بما فيه الكفاية .

لقد سبق ان قال لابلاس ان خمسين سنة قد انصرمت قبل أن يكون اكتشاف نيوتن العظيم قد اكتمل بدرجة ملحوظة . وكان لا بد من هذه المرحلة الطويلة حتى تفهم هذه الحقيقة الكبرى بشكل عام ، وحتى يتم التغلب على تلك العقبات التي وضعتها في طريقها النظرية الديكارتية ، وربما ايضا الكبرياء المجروحة لرياضيي عصر نيوتن* .

ان العقبات التي واجهتها المادية المعاصرة كنظرية منسجمة وثابتة هي أعظم بما لا يقارن من تلك العقبات التي واجهتها نظرية نيوتن لدى ظهورها . وتقف ضدها وبشكل حاسم ومباشر مصالح الطبقة التي هي الآن في السلطة ، والتي يخضع لتأثيرها بالضرورة معظم الباحثين . ان المادية الديالكتيكية « التي تعتبر أي شكل متطور تاريخيا هو دائما في حركة دائبة .. ولا تدع شيئا يخدعها» ،

---

* « شرح نظام العالم » باريس السنة الرابعة المجلد الثاني ص ٢٩١ — ٢٩٢.

لا يمكن أن تكن الود للطبقة المحافظة التي تتألف من البرجوازية الغربية اليوم . انها تقف في تناقض مع ذلك الاطار الطبقي لفكر أيديولوجيي تلك الطبقة التي من الطبيعي أن تنظر اليها كشيء محظور ، وغير لائق ولا يستحق الاهتمام من قبل كل الناس « المحترمين » بشكل عام ، والرجال « المقدرين » بشكل خاص* وليس من المدهش أن كل جهبذ من هؤلاء الجهابذة يعتبر نفسه مضطرا اخلاقيا أن ينزع من نفسه أي شك في التعاطف مع المادية . ويكفي عادة ان يدين هؤلاء الجهابذة المادية بشدة ، وما أن يدينوها حتى يتعلقوا من جهة ثانية بالموقف المادي في بحثهم الاجتماعي** . ان النتيجة هي « أكذوبة تقليدية » شبه لا واعية ، يمكن بالطبع ان يكون لها أثر مؤذ جدا على الفكر النظري .

---

* بالنسبة لهذا انظر مقالة انجلز التي سبقت الاشارة اليها عن المادية التاريخية .

** سوف يتذكر القارىء كيف أنصف لامبريش نفسه بحماسة عندما اتهم بالمادية ، وأيضا كيف دافع راتزل عن نفسه ضد التهمة نفسها وفي كتابه (Dieerde und des leben) الجزء الثاني ص ٦٣١ كتب الكلمات التالية :
« ان كل المكتسبات الثقافية لكل شعب في أي مرحلة من تطوره تتركب من عناصر مادية وروحية ، ... انها لا تكتسب بوسائل واحدة ، أو بسهولة واحدة أو في وقت واحد .... ان المكتسبات الروحية تقوم على المكتسبات المادية . ويظهر النشاط الروحي شيئا كماليا فقط بعد تأمين الحاجات المادية . ولذلك فان كل الاسئلة عن أصل الثقافة تنصب في السؤال التالي : ما الذي يرقى بتطور الاسس المادية للثقافة Vulkerhund . ان هذه مادية تاريخية فجة لم تحظ الا بأقل اعتبار . ولذلك ليست ذات صفة أصيلة كمادية ماركس وانجلز .

١٥ ـ الحرية والضرورة

كلما غدت « الاكذوبة التقليدية » في مجتمع منقسم الى طبقات معززة اكثر ، اهتز نظام الاشياء القائم ، هزته صدمة التطور الاقتصادي والصراع الطبقي المتسبب عنه . لقد صدق ماركس في قوله : كلما اشتد تطور التناقض بين قوى الانتاج النامية والنظام الاجتماعي القائم ، أصبحت أيديولوجية الطبقة الحاكمة مشبعة بالنفاق أكثر فأكثر . وكلما فضحت الحياة بهتان هذه الايديولوجية غدت **لغة** تلك الطبقة مهذبة وفاضلة . (أنظر ماركس وانجلز في **العائلة المقدسة** فصل القديس ماكس) . ان حقيقة هذه الملاحظة تظهر بقوة في وطننا هذه الايام ، عندما نجد الاخلاق المتحللة المنتشرة في ألمانية ، كما كشفت عن ذلك محاكمة هاردن مولتسك ، تسير يدا بيد مع « تجدد المثالية » في العلوم الاجتماعية . وفي بلادنا ، من بين « نظريي البروليتاريا » ، يوجد من الناس من لم يفهم السبب الاجتماعي لهذا « التجدد » ، وخضعوا هم أنفسهم لتأثيره ، أمثال البوغدانوفيين والبازاروفيين وأضرابهما .

عظيمة هي الفوائد التي يجنيها أي باحث يتزود بالطريقة الماركسية ، فحتى أولئك الذين استسلموا بارادتهم لـ « الاكذوبة التقليدية » لعصرنا بدؤوا يقرون علنا بهذه الفوائد . ومن بين هؤلاء ، على سبيل المثال ، الكاتب الامريكي (أدوين سيلكمان) ، مؤلف كتاب طبع في عام ١٩٠٢ تحت عنوان **التفسير الاقتصادي للتاريخ** . ويوافق سيلكمان بصراحة أن الباحثين يتحفظون جدا

من نظرية المادية التاريخية بسبب النتائج الاجتماعية التي استخلصها ماركس منها . وهو يعتقد ، على أي حال ، ان بامكانك أن تأكل كعكتك ثم تملكها : فالمرء يمكن أن يكون ماديا اقتصاديا ومع هذا يبقى معاديا للاشتراكية . وكما قال : والواقع ان اقتصاد ماركس الذي يمكن ان يعاب لا تأثير له على صدق فلسفته في التاريخ أو بهتانها*. وفي الواقع أن آراء ماركس الاقتصادية مرتبطة ارتباطا داخليا مع آرائه السياسية . ان فهما حقيقيا لكتاب **رأس المال** يتضمن بشكل مطلق الفكرة السابقة الدقيقة المشروحة في مقدمة « نقد الاقتصاد السياسي » . وعلى أي حال ، لا نستطيع هنا أن نشرح آراء ماركس الاقتصادية ، أو نعرض الحقيقة المتماسكة وهي أن هذه الآراء تشكل عنصرا لا ينفصل عن **المذهب** المعروف بالمادية التاريخية** . وسأضيف هنا فقط : ان سيلكمان «جهبذ» بشكل كاف لترعبه **المادية** أيضا . هذه « المادية » الاقتصادية التي يعتقد أنها تصل الى مبالغات لا تطاق « فتجعل الدين يقوم على قوى اقتصادية » أو « تبحث عن تفسير المسيحية في عوامل اقتصادية فقط*** » كل هذا يشير بوضوح كم هي عميقة جذور

---

* « التفسير الاقتصادي للتاريخ » الصفحة ٢٤ والصفحة ١٠٩ .

** سأكتب بضع كلمات عابرة في شرح ماسبق قوله : ان « المقولات الاقتصادية» عند ماركس « ما هي الا التعبيرات النظرية ، الا التجريدات لعلاقات الانتاج الاجتماعية » (انظر بؤس الفلسفة ، الفصل الثاني ، الملاحظة الثانية (١٠) . ان هذا يعني ان ماركس يعتبر مقولات الاقتصاد السياسي ، بل فوق ذلك يعتبر من وجهة نظر مماثلة ، العلاقات بين الناس في العملية الاجتماعية للانتاج علاقات يمده تطورها بالتفسير الاساسي للحركة التاريخية للجنس البشري .

*** التفسير الاقتصادي للتاريخ ص ١٣٧ (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠) ان كتاب كاوتسكي « **اصل المسيحية** » ، ككتاب « متطرف » ، يستحق التأنيب من وجهة نظر سيلكمان .

(١٠) ترجمنا هذا الكتاب وصدر عن دار دمشق عام ١٩٧٢ (المترجم)

هذه الميول ـ وبالتالي العقبات ـ التي تحاربها النظرية الماركسية. ان حقيقة ظهور كتاب سيلكمان ، وحتى الطبيعة المحافظة جدا التي يفصح عنها ، تقدم أملا في أن المادية التاريخية ـ سواء بشكلها المبتور أو « النقي » ـ سوف تنتزع في النهاية الاقرار بها من مفكري البرجوازية هؤلاء الذين لا يسمحون في ادخال فكرة النظام في آرائهم التاريخية* .

ولكن النضال ضد الاشتراكية ، والمادية ، والتطرفات الاخرى ، يفترض مسبقا حيازة « سلاح روحي » . وما يعرف اليوم بالاقتصاد السياسي الذاتي والحسابات الدقيقة المضللة تؤلف في الوقت الحاضر السلاح الروحي الرئيسي المستخدم في النضال ضد الاشتراكية ، وتشكل المجموعات الكانتية كلها الحصن الرئيسي في النضال ضد المادية . وقد استغلت الكانتية لهذا الغرض في حقل العلوم الاجتماعية كمذهب **ثنائي يمزق اربا الرابط بين الكائن والفكر** . وبما أن المسائل **الاقتصادية** لم تظهر في بحر هذا الكتاب ، فسوف أبيح لنفسي أن أتناول بالتقويم السلاح الروحي **الفلسفي** الذي تستخدمه الرجعية البرجوازية ، في المجال الايديولوجي .

---

* ان الاشارة التالية لعلى جانب كبير من الاهمية . يقول ماركس ان الديالكتيك المادي ، في الوقت الذي يفسر ما هو قائم ، يفسر ما سوف **ينهار حتما** . ويرى في هذا قيمته وأهميته التقدمية . واليك هنا ما يقوله سيلكمان : « ان الاشتراكية نظرية ما يجب أن يكون ، والمادية التاريخية نظرية ما كان » (المرجع السابق ص ١٠٨) ولهذا السبب وحده يعتبر أن من الممكن بالنسبة له أن يدافع عن المادية التاريخية . ان هذا يعني ، بكلمات أخرى ، ان ماديته يمكن أن يتم تجاهلها عندما نصل الى تفسير الدمار الحتمي **لما هو قائم** ، ويمكن أن نستخدم التفسير المادي لما كان قائما في الماضي . هذا مثال واحد من أمثلة عديدة لاستخدام الموقف المزدوج في حقل الايديولوجيا ، انها ظاهرة تتحدر أيضا من الاسباب الاقتصادية .

يلاحظ انجلز في كتابه « الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية » انه عندما تصبح الوسائل الجبارة للانتاج الذي خلقته المرحلة الرأسمالية ملكا للمجتمع ، وعندما ينظم الانتاج حسب الحاجات الاجتماعية ووفقا لمقتضياتها ، يصبح الناس أسياد علاقاتهم الاجتماعية ، وأسيادا على الطبيعة ، وأسياد أنفسهم . وعندئذ سوف تكون الاسباب الاقتصادية التي خلقوها تقوم ، بنسب عظيمة جدا ، بالتأثيرات التي يرغبون فيها . « ان هذه ستكون قفزة البشرية من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية » .

أثارت كلمات انجلز هذه اعتراضات من قبل أولئك الذين عجزوا بشكل عام عن هضم فكرة « القفزات » ، فعجزوا أيضا أو لم يرغبوا في فهم أي « قفزة » مثل هذه القفزة من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية . مثل هذه « القفزة » ظهرت لهم متعارضة مع رأي أنجلز في الحرية ، هذا الرأي الذي ورد في الجزء الاول من كتابه **أنتي دوهرنغ** . ولذلك ، اذا اردنا أن نتلمس طريقنا خلال التشويش الذي يغلف عقول أمثال هؤلاء الناس ، فان علينا أن نتذكر ما قاله انجلز في كتابه الذي سبقت الاشارة اليه .

واليك هنا ما قاله ، شارحا كلمات هيغل القائلة : « أن الضرورة عمياء ما دامت غير معروفة » فقد أشار انجلز الى أن الحرية تشتمل على السيطرة « العملية على أنفسنا ، وعلى الطبيعة الخارجية ، سيطرة تقوم على معرفة الضرورة الطبيعية* » وقد شرح انجلز هذه الفكرة بجلاء كاف جدا لاولئك الذين اعتادوا الرجوع الى المذهب الهيغلي . ان المشكلة هي أن الكانتيين المعاصرين « ينتقدون » هيغل فقط ، ولكنهم لا يدرسونه . وبما أنهم لا يملكون

---

* السيد دوهرنغ يقلب العلم ص ١١٣ .

أي معرفة بهيغل ، فانهم لا يفهمون انجلز . لقد قدموا اعتراضا ضد مؤلف أنتي دوهرنغ وهو أنه حيث يوجد خضوع للطبيعة ، لا توجد حرية . ان هذا يناسب فئة من الناس تشربت آراؤهم الفلسفية **بالثنائية** ، العاجزة عن توحيد الفكر والكائن . ومن وجهة نظر هذه الثنائية ، تبقى « القفزة » من الضرورة الى الحرية غير مفهومة مطلقا . ولكن فلسفة ماركس ، مثل فلسفة فيورباخ ، تعلن وحدة الكائن والفكر . ومع هذا فكما رأينا من قبل ، في المقطع الذي يدور حول فيورباخ ، تفهم الماركسية الوحدة بمعنى يختلف تماما عن المعنى الذي تفهمه المثالية المطلقة ، ان الفلسفة الماركسية تتفق مع المذهب الهيغلي في المسألة التي نحن بصددها أي العلاقة بين الحرية والضرورة .

ان فحوى المسألة كلها هي كيف يجب أن تفهم **الضرورة** بالضبط . وقد سبق لارسطو* أن أشار الى أن مفهوم الضرورة يتضمن عدة ظلال من المعنى : فالدواء ضروري ليكون العلاج ناجعا، والتنفس ضروري للحياة ، والرحلة الى ايجينا ضرورية لجمع الديون . كل هذه **ضروريات مشروطة : فعلينا** أن نتنفس **اذا** أردنا أن نعيش ، **علينا** أن نتناول الدواء **اذا** أردنا ان نتحرر من المرض ، وهلمجرا ... ان الانسان في عملية التفاعل مع العالم يستمر دائما في التفاعل مع هذا النوع من الضرورة : **عليه** ان يبذر **اذا** أراد أن يحصد ، وأن يطلق السهم اذا أراد أن يقتل الطريدة ، وأن يحصل على الوقود **اذا** أراد للآلة البخارية أن تعمل ، وهلمجرا ... ومن وجهة نظر الكانتية الجديدة « ناقدة الماركسية » نجد أنها وافقت أن هناك عنصرا من **الخضوع** في هذه الضرورة المشروطة . ان الانسان يكون **أكثر حرية** اذا كان قادرا على ارضاء حاجاته دون

---

* « ما وراء الطبيعة » لارسطو . الكتاب الخامس الفصل الخامس .

بذل أي عمل . انه **يخضع** دائما للطبيعة ، حتى عندما **يجبرها على خدمته** . ان هذا الخضوع ، على كل حال ، شرط لتحقيق حريته : فبخضوعه للطبيعة يضاعف من **سيطرته عليها** أي **حريته** . ويكون الامر نفسه في ظل تنظيم مخطط للانتاج الاجتماعي .

فعن طريق **الخضوع** لبعض متطلبات الضرورة التكنيكية والاقتصادية ، سوف يضع الناس نهاية لنظام الاشياء المنافي للطبيعة الذي في ظله تسيطر عليهم المنتجات التي قدموها بجهودهم ، أي أنهم يضاعفون من **حريتهم** الى درجة كبيرة جدا . وهنا أيضا يصبح خضوعهم مصدرا لحريتهم .

وليس هذا كل شيء .. أن « نقاد » ماركس الذين اعتادوا يلحون على الهوة التي تفصل الفكر عن الكائن ، يعرفون فقط ظلا واحدا للضرورة ، واذا استخدمنا كلمات ارسطو ، أنهم يتصورون الضرورة قوة **تمنعنا** من العمل وفقا لرغباتنا ، وتضطرنا الى عمل ما هو **مناقض** لرغباتنا . ان الضرورة التي من هذا النوع هي حقا نقيض الحرية ، ولا يمكن أن تكون الا ضرورة مزعجة في كل درجاتها . ولكن علينا الا ننسى ان قوة يراها الانسان قسرا خارجيا تصارع رغباته ، يمكن في ظروف أخرى أن يراها هو نفسه رؤية مختلفة اختلافاً كليا . وايضاحا لهذه النقطة دعنا نأخذ المسألة الزراعية في روسيا اليوم . بالنسبة **للاقطاعي** الواعي الذي هو ديمقراطي دستوري يمكن أن يبدو له « الابعاد القسري من الارض » ضرورة تاريخية كئيبة تقريبا ــ حزينة أي هي مناقضة لحجم « التعويض العادل » الممنوح . أما بالنسبة للفلاح الذي يحن للارض ، فان المناقضة حقيقية : فان « التعويض » العادل سوف يمثل الضرورة الكئيبة بينما يبدو « الابعاد القسري » تعبيرا لارادته الطليقة ، وأكبر ضمانة لحريته .

وأنا بقولي هذا انما المس نقطة على جانب كبير من الاهمية في مذهب الحرية ـ نقطة لم يشر اليها انجلز لا لشيء الا لانها اعتراف من ذاك الذي ينتمي للمدرسة الهيغلية .

يقول هيغل في فلسفته عن الدين : « ان الحرية تكمن لا في ارادة أي شيء ، وانما في ارادة نفسها* » . ان هذه الملاحظة تلقي نورا شديدا على كل مسألة الحرية ، بقدر ما تحمل تلك المسألة من علم النفس الاجتماعي . ان الفلاح الذي يطلب تحويل أرض الاقطاعي اليه لا يريد شيئا الا «نفسه» والاقطاعي الديمقراطي الدستوري الذي يوافق على منحه الارض انما يريد « نفسه » ولكن ذلك يعني ان التاريخ يجبره أن يريد. فالاول **حر** بينما **يخضع** الثاني بحكمة **للضرورة** .

وكما هو الامر مع الفلاح ، نجد الامر نفسه مع البروليتاريا التي تحول وسائل الانتاج الى ملكية اجتماعية ، وتنظم الانتاج الاجتماعي على أساس جديد . انها لا ترغب في شيء الا «نفسها» ، وسوف تشعر بأنها « **حرة تماما** » . أما بالنسبة للرأسماليين ،

---

* (ملاحظة في الطبعة الالمانية ١٩١٠) .

قال سبينوزا من قبل (في كتابه الاخلاق الجزء الثالث الفرضية الثانية) أن عدة أفراد يعتقدون أنهم يؤدون افعالهم بحرية لانهم يعرفون أفعالهم ولكنهم لا يعرفون أسباب هذه الافعال . « وهكذا يعتقد الطفل انه يبحث عن صدر أمه بكل ارادته الحرة ، ويظن الشاب الغضوب انه يبحث عن الانتقام بمحض ارادته ، ويعتقد الجبان انه يبحث عن الفرار بكامل حريته » وقد عبر ديدرو عن الفكرة نفسها ، وقد كان مذهبه المادي ، بشكل عام ، سبينوزية متحررة من الارهاص الاكليركي .

فانهم يشعرون ، طبعا ، أنهم في وضع الاقطاعي الذي وافق على البرنامج الزراعي للديمقراطيين الدستوريين' ، انهم لا يستطيعون الاعتقاد الا بأن تلك **الحرية** شيء ، **والضرورة التاريخية** شيء آخر .

يبدو لي أن هؤلاء « النقاد » الذين اعترضوا على موقف أنجلز فشلوا في فهمه أيضا ، لانهم كانوا قادرين على تصور أنفسهم في وضع الرأسمالي ، ولكنهم كانوا عاجزين عجزا تاما عن تصور أنفسهم ينتعلون خصف البروليتاري . اني أتمسك بالرأي الذي يقول أن لهذه القضية ايضا سببها الاجتماعي والاقتصادي .

١٦ ـ الضرورة والارادة

وللثنائية ، التي يهرع اليها اليوم مفكرو البرجوازية ، تهمة أخرى ضد المادية التاريخية . فقد اتهم ستاملر المادية التاريخية بأنها لا تأخذ **الغائية الاجتماعية** في حسابها . ان هذه التهمة الثانية التي تنبع من التهمة الاولى ، لا أساس لها مطلقا مثل سابقتها .

يقول ماركس : « يدخل الناس في عملية الانتاج الاجتماعي للحياة ، في علاقات محددة فيما بينهم » . ويرجع ستاملر الى هذه الصيغة ليثبت عكس نظرية ماركس ، ان ماركس كان عاجزا عن تجنب الاعتبارات الغائية . فكلمات ماركس هذه ، حسب رأي ستاملر ، تعني أن الناس يدخلون **عن وعي** في العلاقات المتبادلة التي بدونها يكون الانتاج مستحيلا . وبالتالي فان تلك العلاقات هي حصيلة **العمل النفعي** .

ومن السهل جدا أن نرى في أي جزء من هذه المناقشة يقترف ستاملر خطأ منطقيا ترك ميسمه على كل الملاحظات النقدية الاخرى .

ولنأخذ مثالا . ان المتوحشين الذين يعيشون من الصيد يقنصون الطريدة ، كالفيل مثلا . ولهذا فهم يجتمعون معا ، وينظمون قواهم بطريقة معينة . فما الهدف من هذا وما **الوسائل** ؟ ان الهدف واضح وهو تضافر القوى لمطاردة الحيوان . **وبماذا** يتحقق الهدف ؟ بحاجات الهيئة **التنظيمية** البشرية .

والآن **ما الذي** يحدد الوسائل ؟ انها ظروف القنص . هل حاجات الجسد البشري تعتمد على ارادة الانسان ؟ لا . انها لا تعتمد عليها ، ان هذا فصل بين **علم الوظائف وعلم الاجتماع**. فماذا بامكاننا الآن ان نطلب من علم الاجتماع بهذا الخصوص ، يمكن أن نطلب تفسيرا للسؤال التالي : **لماذا يدخل الناس أثناء بحثهم لتأمين حاجاتهم ـ كالحاجة الى الغذاء مثلا ـ في أنواع معينة من العلاقات المتبادلة أحيانا ، وأحيانا في أنواع اخرى من العلاقات ؟** . ان **علم الاجتماع** ـ عند ماركس ـ **يشرح هذا على أنه حصيلة وضع القوى المنتجة لهؤلاء الناس** . والسؤال الآن هو ما يلي : هل وضع هذه القوى يعتمد على الارادة البشرية أو على الاهداف التي يسعى اليها الناس ، وعن هذا السؤال يجيب علم الاجتماع ، عند ماركس أيضا ، انها لا تعتمد على الارادة البشرية . واذا كان مثل هذا الاعتماد غير موجود فان تلك السمات التي ظهرت فيها تلك القوى الى الوجود عن طريق حاجة ضرورية ، تقررها الشروط المحددة الخارجة عن ارادة الانسان .

ما الاستنتاج الذي نصل اليه ؟ ان هذا الاستنتاج هو أنه اذا كان الصيد نشاطا نفعيا من جانب المتوحش فان هذه الحقيقة لا تقلل من أهمية ملاحظة ماركس أن **علاقات الانتاج التي ظهرت بين المتوحشين الذين يعملون صيادين** ، انما تظهر الى الوجود بفضل جهود **لاتعتمد كليا على ذاك النشاط الملائم** .وبكلماتأخرى، اذا كان الصياد البدائي يكافح **عن وعي** لقتل الصيد ، فلا يترتب على ذلك ان الشيوعية التي تسم الحياة اليومية لذلك الصياد قد تطورت باعتبارها **حصيلة نفعية لنشاطاته** . كلا . هذه الشيوعية ظهرت ، **أو** بالاحرى حافظت على نفسها (لاحظ انها ظهرت منذ زمن بعيد) كنتيجة **غير واعية** ، **اي كضرورة** ، لتنظيم العمل تنظيما

مستقلا كل الاستقلال عن ارادة الناس* . وهـذا ما فشـل في استيعابه الكانتي ستاملر ، وهنا يضل ستاملر طريقه ويقود قيادة ضالة، ستروفيينا وبولغاكوفيينا وغيرهم من الماركسيين **المعاصرين،** الذين لا يعرف اسماءهم الا الله وحده** .

ويقول ستاملر متابعا ملاحظاتـه النقدية ، لو أن التطـور الاجتماعي يظهر على وجه الحصر بفضل **الضرورة السببية** ، فان من السخف تماما اذا حاولنا ان نتخطـاه . وفيمـا يلي رأيـه في التناوب : اذا اعتبرنا ظاهـرة ما من الظواهر انها **ضـرورة** ، أي حتمية ، فان هذه الظاهرة لاتحتاج في هذه الحالة الى مساعدتي لها ، واذا اعتبرنا نشاطي هو الاساس الضروري لهذه الظاهرة حتى تظهر ، فلا يمكن في هذه الحالة أن تسمى هذه الظاهرة ضرورة . اذ من يحاول ان يساعد ضرورة شروق الشمس أي حتمية هـذا الشـروق ؟ .

ان هذا كشف مدهش لثنائية أولئك الناس المغرقين جـدا في الكانتيه ، فبالنسبة لهم نجد أن **الفكر منفصل عن الكائن انفصالا تاما ودائمـا .**

ان شروق الشمس مرتبط دون شك بالعلاقات الاجتماعية ، سواء كسبب أو كمفعول . فشروق الشمس ظاهرة طبيعيـة ، يمكن أن يكون متعارضا مع مطامح الانسـان الواعية التي لا رابـط

---

* يقول شلنج « الضرورة في تناقضها مع الحرية ، ليست شيئا آخر سوى اللا وعي » نظام المثالية الاصولية ص ٤٢٤ عام ١٨٠٠ .

** عالجت هذه الناحية من القضية معالجة مفصلة في أجزاء شتى من كتابي « النظرة الواحدية في التاريخ » .

يربطها أو يجمعها مع شروق الشمس . ولكن الامر يختلف تماما عندما نعالج الظاهرة الاجتماعية ، عندما نعالج التاريخ . لقد رأينا من قبل أن التاريخ يصنعه الناس ، ولذلك فان مطامح الناس لا يمكن الا أن تكون عاملا من عوامل حركة التاريخ . ولكن الناس يصنعون التاريخ بطريقة معينة لا بأخرى ، بتأثير ضرورة خاصة هي تلك التي عالجناها من قبل . **ومادامت هذه الضرورة مسلما بها ، فان من المسلم به أيضا ، كأثر من آثارها ، تلك المطامح البشرية التي هي عامل حتمي في التطور الاجتماعي . ان المطامح البشرية لاتنفي الضرورة ، بل انها نفسها تتحدد بهذه الضرورة .** ولذلك من الخطأ المنطقي الخطير أن نعارض هذه المطامح بالضرورة .

عندما تعلن طبقة ما من الطبقات الثورة الاجتماعية ، وتكافح من أجل حريتها ، تفعل ذلك بطريقة نفعية تقريبا ، لتحقيق هدفها المنشود ، وفي كل الاحوال فان نشاطاتها هي **سبب** تلك الثورة . وعلى أي حال فاننا نجد مع كل هذه المطامح التي أبرزتها هذه النشاطات ، أن هذه النشاطات نفسها عبارة عن **نتيجة** لمجرى محدد للتطور الاقتصادي ، ولذلك فانها نفسها تتحدد بالضرورة .

ان علم الاجتماع يصبح علما بالدرجة التي ننجح في فهم ظهور أهداف الانسان الاجتماعي (« الغائية » الاجتماعية) ، كضرورة تنتج عن عملية اجتماعية يحددها بشكل مطلق مجرى التطور الاقتصادي .

ماأشد وضوح ذلك الظرف الذي رأى فيه خصوم التفسير المادي للتاريخ أنفسهم مجبرين على اثبات **استحالة** قيام علم اجتماع

كعلم . وهذا يعني أن « الخطوة النقدية » **تتحول الآن** الى عقبة في **طريق التطور العلمي لعصرنا** . وفي هذا الخصوص ، قامت مشكلة هامة أمام أولئك الذين يحاولون ايجاد تفسير علمي لتاريخ النظريات الفلسفية . وتلك المشكلة هي تحديد الطريقة التي فيها يرتبط دور « الخطوة النقدية » بنضال الطبقات في المجتمع المعاصر .

اذا أنا سعيت للاشتراك في حركة أعتبر انتصارها ضرورة تاريخية ، فان هذا يعني انني انظر الى نشاطي الخاص باعتباره ارتباطا لاينفصل عن سلسلة الظروف التي سوف يؤكد مجموعها انتصار الحركة التي أدافع عنها . وهي لاتعني شيئا أكثر من ذلك . ان الثنائية سوف تفشل في فهم هذا ، ولكن كل ذلك سيكون واضحا تماما لأي انسان استوعب نظرية **وحدة الذات والموضوع** ، وفهم كيف تفصح تلك الوحدة عن نفسها في الظواهر الاجتماعية .

ومن الجدير بالاهتمام واقع ان نظريي البروتستانتية في الولايات المتحدة الاميركية أظهروا عجزا في فهم التناقض بين الحرية والضرورة ، هذا التناقض الذي مرن العديد من عقول ايديولوجي البرجوازية الاوروبية . يقول هـ ، باركي ان « معظم الاساتذة الاميركيين في حقل الطاقة ، قلما يفرقون بين الطاقة والارادة* » . وهو يعزو هذا الى تفضيلهم « الحلول القدرية » باعتبارهم رجال أعمال . وهو مخطىء في هذا على أي حال ، مادامت القدرية لاتستطيع أن تؤثر شيئا في المادة . ويظهر هذا واضحا في ملاحظته عن عالم الاخلاق « يوناثان ادواردز » : « ان وجهة نظر ادواردز . . هي تلك التي يعتنقها كل رجل عمل . ان الحرية بالنسبة لمن له

---

* « الدين في المجتمع الامريكي » باريس ١٩٠٢ ص ٨٨ — ٨٩ .

هدف في حياتـه هي امكانية وضع كل روحه في خدمة ذلـك الهدف* » . لقد أصاب في هذا الطرح ، ويشبه جـدا ارادة هيغل التي لاتريد شيئا سوى ذاتها ... ولكن عندما لايريد الانسان أي شيء سوى نفسه ، يكون قدريا بلا شك ، وعندئذ يكون هـو بلا ريب **رجل العمل** .

يقول انجلز : يجب أن نكتشف وسائل ازالة الشر الاجتماعي القائم في الشروط المادية القائمة للانتاج ، فلا **يخترعها** هذا المصلح الاجتماعي أو الآخر . إن ستاملر على اتفاق تام في هـذا الامـر ، بيد أنه يتهم انجلز بالتفكير غير الواضح ، مادام في رأيه ـ في رأي ستاملر ـ أن صورة الموضوع تكمن في تثبيت « **الطريقة التـي بمساعدتها** يتم هذا الاكتشاف » .

هذا الاعتراض الذي يتحدث عن التفكير الغامض من قبـل ستاملر ، مقضي عليه باشارة بسيطة الى الحقيقة التالية وهي أنه رغم ان طبيعة «الطريقة» تقررها ، في مثل هذه الحالات ، «عوامل» متعددة جدا ، فان هذه العوامل يمكن أن ترجع كلها على الاطلاق الى مدى مجرد التطور الاقتصادي . ان الحقيقة المؤكدة هي أن **نظرية ماركس** تحدد ظهورها بتطور الطريقة الرأسمالية في الانتاج ، بينما يمكن فهم طوباوية الاشتراكية السابقة للماركسية فهما تاما على أساس أن المجتمع لايعاني فقط من تطور طريقة الانتـاج التي سبقت الاشارة اليها فقط ، بل يعاني أيضا (وبدرجة كبيرة) من **نقص ذاك التطور** .

ان من فضول القول تفصيل الكلام حول هذه القضية . وربما لن يرحب القارىء في نهاية هذه المقالة ، اذا أنا استرعيت انتباهه

---

* المرجع السابق ص ٩٧ ــ ٩٨ .

الى المدى الذي ترتبط فيه ((**طريقة**)) ماركس وانجلز **التكتيكية** بالقضايا الاساسية لنظريتهما التاريخية .

وتخبرنا نظريتهما ، كما عرفنا من قبل ، أن البشرية تلقي على عاتقها مثل هذه المهمات التي تتمكن من حلها « لان المهمة نفسها تقوم فقط عندما تكون الشروط المادية لحلها موجودة سابقا أو على الاقل تكون في طور التكوين » . وحيث **توجد** مسبقا هذه الظروف ، فان حالة الاشياء ، ليست تماما حالتها كما لو كانت في ((**طور التكوين**)) . ففي المثال السابق ، نجد أننا **وصلنا** زمن ((**القفزة**)) ، وفي المثال الاخير نجد أن ((**القفزة**)) **موضوع** مستقل ناء ، و «هدف نهائي » تكون الخطوة اليه عن طريق **تحضير سلسلة من** ((**التغيرات التدريجية**)) في العلاقات المتبادلة بين الطبقات الاجتماعية . ماالدور الذي يلعبه المخترعون أثناء الفترة التي تكون فيها ((**القفزة**)) **ممكنة**؟ . من الواضح أنها تبقى بالنسبة اليهم اسهاما في «التغيرات التدريجية» أي بكلمة أخرى ، عليهم أن يحاولوا الاصلاح . وبهذه الطريقة يجد كل من « الهدف النهائي » و « الاصلاحات » مكانه المناسب ، ويفقد التعارض بين الاصلاح و « الهدف النهائي » كل معنى ، ويتدنى الى مجال الاساطير الطوباوية . ان هؤلاء الذين يقيمون مثل هذا التعارض ـ سواء كانوا « محرفين من ألمانية » مثل ادوارد برنشتاين أو « نقابيين ثوريين » ايطاليين أمثال هؤلاء الذين اشتركوا في المؤتمر النقابي الاخير في فيرارا ـ سوف يظهرون أنفسهم عاجزين تماما عن فهم روح الاشتراكية العلمية الحديثة وطريقتها . وجميل بنا أن نتذكر هذا في الوقت الحاضر عندما تسمح النزعة الاصلاحية والنقابية لنفسيهما أن تتحدثا عن ماركس .

والتفاؤلية السليمة تهتف بالكلمات القائلة ان البشرية تتصدى

دائما للمهمات التي تتمكن من حلها فقط . انهم لايعنون بالطبع أن اي حل لقضايا البشرية الكبيرة ـ كما يقترحه أول طوباوي يقابله المرء ـ هو حل جيـد . فالطوباوي شيء ، والبشرية ، أو بتعبير اكثر دقة ، الطبقة الاجتماعية التي تمثل المصالح العليا للبشرية في مرحلة معينة ، شيء آخر . وكما قال ماركس **« مع تكامل العمل التاريخي ، يزداد حجم الطبقة التي تختص بهذا العمل »** . ان هذا ادانة أكيدة للموقف الطوباوي تجاه القضايا التاريخية العظمى .
ولو أن ماركس فكر أن البشرية لن تتصدى للمهمات غير المنجزة ، لكانت كلماته ، من وجهة موقف النظـرية ، طريقة جـديدة فقط للتعبير عن فكرة وحدة الذات والموضوع في تطبيقها على عملية التطور التاريخي ، ومن وجهة نظر الممارسة العملية يصرحون أن الايمان الجريء والرصين في تحقيق « الهدف النهائي » هو الـذي دفـع الطيب الذكر ن ، ج ، نيشفسكي الـى الهتاف بحماسة : « ليأت ما يأتي ، فسوف نربح » .

* * *

ملحق الكتاب (١)

المنطق الشكلي والمنطق الديالكتيكي

(١١) هذا الملحق عبارة عن مقاطع من المقدمة التي كتبها بليخانوف لكتاب انجلز « لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » في طبعته الالمانية . أما العنوان « المنطق الشكلي والمنطق الديالكتيكي » فمن وضعنا .

(المترجم)

المنطق الشكلي والمنطق الديالكتيكي

ان فلسفة ماركس وانجلز ليست **فلسفة مادية فقط** ، انها **مادية ديالكتيكية** أيضا . وقد قامت الاعتراضات ضد هذا المذهب. ولعل أهم هذه الاعتراضات اعتراضان هما : أولا ان الديالكتيك لايستطيع الصمود للنقد ، وثانيا ان المادية متعارضة مع الديالكتيك وسوف نمحص هذين الاعتراضين .

يتذكر القارىء ولا شك أن برنشتاين عزا ما سماه أخطاء ماركس وانجلز إلى التأثير الضار للديالكتيك . ان المنطق العادي يأخذ بالصيغة القائلة : « نعم هي نعم ، ولا هي لا » . بينما يقلب المنطق الديالكتيكي هذه الصيغة الى نقيضها أي « نعم هي لا ولا هي نعم » . وفي حقد السيد برنشتاين على هذه « الصيغة » الاخيرة ، صرح أن هذه الصيغة يمكن أن تقود المرء الى أخطر الضلالات والاخطاء المنطقية . ان الغالبية العظمى من القراء الذين يعتبرون مثقفين قد وافقوه على أن صيغة « نعم هي لا ، ولا هي نعم » تبدو متناقضة صراحة مع قوانين الفكر الاساسية الوطيدة. اننا سنناقش المسألة من هذه الواجهة فقط .

ان « قوانين الفكر الاساسية » ثلاثة :

١ ـ قانون الهوية .

٢ ـ قانون التناقض .

٣ ـ **قانون الوسط المستثنى** : (قانون الثالث المرفوع أو قانون حذف الوسط) .

وقانون الهوية هو القانون الـذي يثبت أن (أ) هي (أ) أو أن (أ) = (أ) .

وقانون التناقض وهو القانون الـذي يثبت أن (أ) ليست (أ) : أي انه ليس سوى الشكل السلبي للقانون الاول .

وطبقا لقانون الوسط المستثنى ، فـان الحكمين المتناقضين اللذين يتبادلان بالاستثناء ، أي كل واحد يستثني الآخر ، لايمكن أن يكون كلاهما خطأ . والحقيقة أن (أ) هي (ب) أو ليست (ب). ان حقيقة أي من هذيـن الحكمين تعني بالضرورة بطلان الآخـر واستثناءه ، والعكس بالعكس . ولا يوجد ، ولا يمكن أن يوجـد أي وسط .

وقد أشار أوبرويغ الى أن قانون التناقض وقانون الوسط المستثنى يمكن أن نوحد بينهما بالقاعدة المنطقية التالية :

« بالنسبة لاي سؤال ، يفهم بالمعني المباشر ، فيما اذا كان خبرا محددا منسوبا الى مبتدأ معين ، علينا أن نجيب اما ب (نعم) أو ب (لا) ولا يمكن أن نجيب بنعم ولا في وقت واحد * » .

ان من العسير أن يقوم أي اعتراض حول صحة هذا القاعدة. ولكن اذا كانت هذه القاعدة صحيحة ، فـان صيغة « نعم هي لا **ولاهي نعم** » غير صحيحة ، ويجب الاقرار بذلك ، والشيء الوحيد الذي بامكاننا ان نفعله هو الضحك الى حد السخرية ، تابعين في

---

* « نظام المنطق » بون ١٨٧٤ ص ٢١٩ .

ذلك مثال السيد برنشتاين ، ومعترفين على أنفسنا بالخسارة اذا نحن سئلنا كم من المفكرين الكبار والعميقين أمثال هيراكليت وهيغل وماركس لم يجدوا صيغة أكثر ملاءمة من صيغة **« نعم هي نعم ولا هي لا »** التي أقيمت على أساس أحكام الفكر المشار اليها .

هذه النتيجة التي هي حتمية بالنسبة للديالكتيك ، يمكن ان تبدو غير قابلة للنقاش ، ولكن على أي حال دعنا قبل الموافقة على القضية ننظر اليها من زاوية أخرى .

ان حركة المادة تكمن في جذر كل الظواهر الطبيعية * . ولكن ما الحركة ؟؟ . هنا نجد أنفسنا أمام ما يبدو تناقضا . فاذا سئلنا عما اذا كان الجسم المتحرك مستقرا في مكان معين ، وفي لحظة معينة ، فانك لن تتمكن ، مهما حاولت جهدك ، أن تقدم جوابا بالاعتماد على قاعدة اوبرويغ ، أي بالاعتماد على الصيغة القائلة : « نعم هي نعم ولا هي لا » . ان جسما ما يكون في مكان معين ، وفي الوقت نفسه لايكون في هذا المكان** .

والسبيل الوحيد الذي يمكن فيه تكوين محاكمة عقلية لهذا هو الموافقة على الصيغة « نعم هي لا ، ولا هي نعم » . وبهذا يكون الامر بلا جدال لصالح **«منطق التناقض»** . وكل من لايوافق على هذا المنطق سيعلن ، مع زينون الايلي ، ان الحركة ليست شيئا سوى وهم الحواس .. ان مواطننا ن ــ ج ، الذي هو أيضا عدو

---

* اني أرجع الى المظهر الموضوعي للظاهرة . « ان الاختيار بالنسبة للدماغ عبارة عن حركة نظام معين من النسج . وحتى بالنسبة للنفس ، فان هذا ما يثبت بالتالي حركة النسج » .

** هذا شيء لا يستطيع حتى أشد أعداء الطريقة الديالكتيكية عنادا الا أن يوافق عليه .

لدود للديالكتيك ، ولكنه ليس عدوا خطيرا ، لايفهم هذا كما يبدو. يقول لو أن جسما ما في حركة ، بكل أجزائه ، « استقر في مكان واحد ، اذن فان استقراره في مكان آخر ، يستدعي بلا جدال انبثاقا من لاشيء ، اذ من أين يمكنه الخروج الى مكان آخر ؟هل يخرج من المكان السابق ؟ ولكن الجسم لم يغادر بعد مكانه السابق » . واذا لخصنا مايهدف اليه لرأينا انه يرمي الى القول أن جسما ما يأخذ مجراه في حركة معينة وفي مكان معين ، لكنه لايفعل ذلك بكل أجزائه ، علينا أن نتذكر انه حتى في حالة الاستقرار ، فان الاجزاء المختلفة للجسم تشغل أماكن مختلفة في الفراغ * .

كل هذا جيد ، وان كان باليا . فما الذي أثبتته مجادلات السيد ن ــ ج ؟ لقد **أثبتت أن الحركة مستحيلة** . شيء رائع . ان هذا أمر لن أجادل ضده ؛ سوف أسأل السيد ن ــ ج على أي حال ان يتذكر ملاحظة أرسطو ، التي يتبناها العلم الطبيعي يوما فيوما ، وهي أننا برفضنا الحركة نجعل أي دراسة للطبيعة مستحيلة** . أهذا ما كان يبحث عنه اسيد ن ــ ج ؟ أكان هذا هو هدف « الصحيفة الموثوقة » نالتي طبعت اطروحته العلمية العميقة ؟اذا لم يكن أي منهما قادرا على رفض الحركة ، فانهما كلاهما اثبتا أن معضلة (Aporia) زينون كما بحثها ن ــ ج لم تؤد الى نتيجة سوى الاقرار بالحركة كتناقض في الفعل ، أي الاقرار بذلك الذي أراد السيد ن ــ ج دحضه .

أولا ان أسأل كل أولئك الذين لا يرفضون الحركة : ماذا

---

* (المادية والمنطق الديالكتيكي) روسكوي بوغا تستفو . تموز ١٨٩٨ ص ٩٤ وأيضا ص ٩٦ .

** « ما بعد الطبيعة » الجزء الاول ، الفصل السابع صفحة ٥٩ .

نقول في « **القانــون الاساسي » للفكــر** ، الــذي يناقض **الحقيقة الاساسية** للكائن ؟ أليس علينا أن نهمل مثل هذا « القانون » مــع بعض الاحتراس .

يبدو أننا وجدنا انفسنا نواجه على التوالي كلا من الاقرار بـ « القوانين الاساسية » للمنطق الشكلي مع رفض الحركة ، أو على العكس ، الاقرار بالحركة مع رفض تلك القوانين الاساسية للمنطق الشكلي . إن تتابعا كهذا غير مرغوب . دعنا نبحث فيما اذا كــان في مقدورنا تجنبه بطريقة ما .

تكمن حركة المادة في أصل كل الظواهر الطبيعية . ولكــن الحركة تناقض . فيجب أن تعالج بطريقة ديالكتيكية ، أي كمــا سيقول السيد برنشتاين ، طبقا للصيغة القائلة « نعــم هي لا ، ولا هي نعم » ولذلك علينا ما دمنا نرجع الى أساس كل الظواهر، أن نسلم بأننا نخضع لسيطرة **«منطق التناقض»** . ولكن جزئيات المادة التي هي في حركــة ، تتجمع لتشكــل **اتحادات** ــ الاشياء والموضوعات . هذه الاتحادات تملك درجة من القوة ، كبيرة أم صغيرة ، وتوجد لفترة من الوقت ، قد تطول أو لا تطول ، ثــم تختفي لتحل محلها اتحادات أخرى . ان حركة المــادة فقط هي الابدية ، والمادة نفسها هي كتلة غير قابلة للفناء . ولكن قد يظهــر أحيانا اتحادحديث معين للمادة نتيجةالحركة الابدية لهذه المادة. وحتى لو اختفى هذا الاتحاد نتيجة لتلك الحركة ، يجب أن نجيب عن مسألة وجوده بشكل ايجابي . ولذا ، فلو أن أي فرد يشير الى كوكب الزهرة ويسألنا فيما اذا كان موجودا فعلا ، فسوف نجيبه بلا أي تردد هذا الكوكب **موجود** . ولكن لو سئلنا فيما اذا كان المنجمون موجــودين ، سنجيب بشكــل قاطــع انهم **غــير موجودين** . فكيف نفهم هذا ؟ يجب أن نفهمه على أنــه يعني أننا

عندما نعالج موضوعات فردية ، علينا في محاكماتنا أن نتبع القاعدة التي أشار اليهـا أوبرويغ سابقـا ، وان نستهدي بشكل عـام بـ « القواعد الاساسية للفكر » . في هذا المجال تكـون السيطرة لـ « الصيغة » العزيزة جدا على فؤاد السيد برنشتاين : « نعم هي نعم ، ولا هي لا * » .

وهنا أيضا لا تبدو عملية هذه الصيغة الثمينة عملية مطلقة. ان جواب الاثبـات يجب أن يتلـو السؤال المطروح عـن حقيقة الموضوع الذي **سبق له أن ظهر الى الوجود** . ولكن عندما يكون الموضوع في **عملية الظهور الى الوجود** ، يكون لدينا عذر وجيـه للتردد في الاجابة . وعندما يفقد شخص ما نصف شعر رأسه ، فسوف نقول أنه أصلع ، ولكن كيف يمكننا أن نقرر في أي مرحلة معينة جعله تساقط شعر رأسه يكتسب هذا اللقب .

ان الجواب عن أي سؤال محدد عن موضوع له خاصة معينة ، يكون اما « نعم » أو « لا » . ولا يمكن أن يحوم شك حول هذا . ولكن ما الجواب الذي نتوقعه عندما يكـون الموضوع في **عمليـة تغير ، ويفقد** الخاصة المعينة ، أو يكون فقط في **عملية اكتساب هذه الصفة ؟** . هنا لا حاجة الى القول ان الجواب في هذه الحالة

---

* هذه الصيغة مع أنها تغطي **محاكمات عقلية تاريخية** ، تستخدم ، مثلا في التساؤلات عما اذا كان أفلاطون قد ولد في ٤٢٩ أم ٤٢٨ أم ٤٢٧ قبل الميلاد .. وهكـذا . وأود أن أذكر الجواب الذي نطق به ثوري روسي فتى جـاء جنيف عام ١٨٨٢ ، كما أظن . فقد استجوبه البوليس وألقى عليه عدة أسئلة حول هويته . فقد سأله ن ـ جوكوفسكي ، وقد توفي الآن من نظم أمر قدومه الى هناك : « أين ولدت ؟ » فأجاب « المتآمر » اليقظ بمراوغة : « أوه ، ولدت في عدد من الاقضية الروسية « Gubernias » » . وهنا انفجر جوكوفسكي صارخا : « من سيصدق ذلك ؟ » ان هذا سيوافق عليه ولا شك أولئك المدافعون الغيورون عن الطريقة الديالكتيكية .

سيكون جوابا اضطراريا : ان صورة المادة هي تلك التي يحددها الجواب القائم على أساس صيغة : « نعم هي لا ، ولا هي نعم » ولا يمكن أن نرجو جوابا على أساس صيغة « نعم هي نعم ، ولا هي لا » هذه الصيغة التي يرشدنا اليها أوبرويغ .

ويمكن الاعتراض ، بالطبع ، ان الخاصة التي تأخذ بالتلاشي لا تكف عن الوجود، أما الخاصة التي شرعت في **اكتساب الوجود** من قبل فانها موجودة ، بحيث أن جوابا محددا يطابق صيغة « نعم » أو « لا » ممكن أو اضطراري حتى عندما يكون الموضوع في **حالة تغير** . وهذا الاعتراض خاطىء على أي حال . ان الفتى الذي طر شعر ذقنه هو ولا شك سيمتلك لحية ، ولكن هذا ليس سببا كافيا لان ندعوه باللحياني . ففي ذقنه لاتوجد لحية بعد ، وان كانت **تأخذ بالظهور** . وحتى يصبح الفتى كاملا من **حيث الصفة** ، **لابد من أن يحقق التغير حدا كميا** معينا . ان من ينسى هذا ، يضل عن امكانية تقدير أي محاكمة **معينة** تتعلق بالخصائص التي تتميز بها الاشياء .

قال المفكر القديم الذي من أفسس (١٢) : « ان كل شيءفي تدفق ،وكل شيءيتغير» . ان الاتحادات التي نسميها موضوعات تكون في حالة ثبات ، وسرعان ما **تتغير** . وطالما تبقى الاتحادات المعينة **اتحادات معينة** ، نضطر الى محاكمتها وفقا لصيغة « نعم هي نعم ولاهي لا » . ولكن طالما انها **تأخذ بالتغير وتكف عن أن تكون موجودة** ، نضطر الى تبني **منطق التناقض** ، حتى ولوغامرنا

---

(١٢) ان بليخانوف يقصد هيراكليت . وقد استخدم هنا صيغة تشبه القديمة التي كان الكتاب المسيحيون الاوائل يستخدمونها .

(المترجم)

في ازعاج السيد برنشتاين والسيد ن ـ ج وكل الاخوة الميتافيزيقيين ، علينا أن نقول : ((**نعم ولا في الوقت نفسه ، انها توجد ولا توجد معا**)) .

وتماما كما أن حالة الاستقرار هي عبارة عن حالة خاصة من حالات الحركة ، كذلك يعتبر التفكير وفقا لقواعد المنطق الشكلي (أي القوانين الاساسية للفكر) حالة خاصة من حالات الفكر الديالكتيكي .

وقد قيل عن كرثيلوس ، أحد معلمي أفلاطون ، انه لم يكن يوافق مع هيراكليت ، الذي قال « لا يمكننا أن ننزل في النهر نفسه مرتين » ويؤكد كراثيلوس اننا لا نستطيع أن ننزل في النهر حتى مرة واحدة : اذ بينما نهم في النزول يتغير ويصبح نهرا **مختلفا** . في مثل هذه المحاكمات نجد ان عنصر **الكائن الحي** (Dasein) **يبطله عنصر الصيرورة** (Werden) **. ان** هذا اساءة للديالكتيك وليس استخداما دقيقا للطريقة الديالكتيكية . وكما لاحظ هيغل فان (الشيء هو النفي الاول للنفي) * .

ان نقادنا الذين لم يألفوا الادب الفلسفي يفضلون الرجوع الى ترندلنبرغ الذي يدعي انه يدحض كل المجادلات لصالح الديالكتيك . ان هؤلاء السادة يسيئون قراءة ترندلنبرغ ـ هذا اذا كانوا قد قرؤوه . لقد نسوا (لو كانوا يعلمون مالست متأكدا منه) التفاهة التالية : ان ترندلنبرغ يعتبر « التناقض الاساسي» ليس في الحركة **بل في الاشياء التي تخلفها** هذه الحركة ** .

---

* المؤلفات الجزء الثالث ص ١١٤ .

** (Logische untcrsuchagen dritte Auflage) ليبزيغ ١٨٧٠ الجزء الثاني ص ١٧٥ .

وهذا صحيح ، بيد ان الحركة **لا تصنع** الاشياء فقط ، كما سبق لي أن قلت ، انها تغيرها باستمرار دائم . ولهذا السبب نجد أن **منطق الحركة** (منطق التناقض) لايسحب حقوقه من الاشياء التي خلقتها الحركة . وهذا هو السبب ، حتى عندما يرجع الامر الى « القوانين الاساسية » للمنطق الشكلي ، في اننا يجب أن نتذكر ان قوانين المنطق الشكلي هامة فقط في حدود معينة ، فقط بالدرجة التي لاتمنع فيه تقدم الديالكتيك . وهكذا يعرض ترندلنبرغ القضية ، مع انه نفسه لم يرسم النتائج المنطقية المناسبة من المبدأ الذي عبر عنه ـ **وهو مبدأ من أهم مبادىء النظرية العلمية في المعرفة** .

وسوف أضيف ، بشكل عابر ، ان عدة ملاحظات هامة تتحدث لصالحي وليس ضدي نجدها مبعثرة في كتابه (logische untersuchangen) **وقد** يبدو هذا غريبا ، انه أمر بسيط جدا تفسيره ان ترندلنبرغ كان يحارب فعلا ضد الديالكتيك **المثالي** . وهكذا يرى عقبة الديالكتيك ، على سبيل المثال ، في « تأكيده الحركة الذاتية للفكر المحض ، الحركة التي هي في الوقت نفسه خلق للكائن * » .

ان هذه خطيئة كبرى فعلا ، ولكن أي فرد يفهم أن هذه العقبة ترجع بالضبط الى الديالكتيك المثالي . ومن المعروف الشائع أن ماركس عندما أراد أن يضع الديالكتيك « وضعا صحيحا » ابتدأ بتصحيح هذا الخطأ الاساسي ، فاجتثه من أساسه المثالي القديم . واليك المثال التالي الآخر . يقول ترندلنبرغ ان الحركة في نظام هيغل هي أساس المنطق الذي يبدو

---

* المرجع السابق الجزء الاول ص ٣٦ .

انه لايحتاج الى مقدمات منطقية للبرهان عليه* ، وتقول ثانية ان هذا صحيح تماما ، ولكن نقول أيضا انها مجادلة لصالح الديالكتيك **المادي** . ولنقدم مثالا ثالثا ، وهو أهم من المثالين السابقين : ان من الخطأ بالنسبة لترندلنبرغ الاعتقاد ان الطبيعة عند هيغل هي منطق تطبيقي فحسب . ان التناقض حقيقي . وان منطق هيغل ليس قطعا خلق فكر صاف نقي ، انه حصيلة التجريد التوقعي من الطبيعة .

(Cine antizipierta abztrakton der Natur) ان كل شيء تقريبا في ديالكتيك هيغل مشتق من التجربة ، حيث ان التجربة تنتزع من الديالكتيك كل ما استعاره هذا الاخير منها ، وينحدر الديالكتيك الى فقر مدقع ** . تلك هي القضية بالضبط ، ولكن هذا هو ماقاله تلاميذ هيغل أولئك الذين تمردوا ضد مثالية معلمهم وانحازوا الى معسكر **المادية** .

ونتابع الآن موضوعنا . لقد قلت من قبل ان الحركة عبارة عن تناقض في العمل ، وان «القوانين الاساسية» للمنطق الشكلي لايمكن تطبيقها عليها . وعليّ أن أشرح هذه الفرضية لاتجنب أي أساس لسوء الفهم . عندما تواجهنا مشكلة التحول من نوع الى نوع آخر من أنواع الحركة ـ ولنقل من حركة ميكانيكية الى حرارة ـ فاننا أيضا نملك السبب الذي يتفق مع قاعدة أوبرويغ الاساسية . هذا النوع من الحرارة هو حرارة ؛ أو حركة ميكانيكية ، أو غير ذلك ... الخ . ان هذا واضح ، ولكن اذا كانت كذلك فان القوانين الاساسية ، ضمن حدود معينة ،

---

* المرجع السابق الجزء الاول ص ٤٢ .

** المرجع السابق الجزء الاول الصفحة ٧٨ والصفحة ٧٩ .

قابلة للتطبيق على الحركة ايضا • اذن يتبع ذلك ان الديالكتيك لايبطل المنطق الشكلي ، بل يجرده فقط من قوانينه ذات القيمة **المطلقة** التي يعزوها الميتافيزيكيون لانفسهم •

اذا اولى القارىء اهتمامه لما سبق شرحه من قبل ، فسوف يفهم بسهولة كم هي ضئيلة « القيمة » التي تعزى للفكرة التي أخذت تتكرر كثيرا في الوقت الحاضر والتي تقول ان **الديالكتيك** يتضارب مع **المادية*** • ان التناقض صحيح ، فان **ديالكتيكنا** يقوم على **الفهم المادي** للطبيعة ، انه مدعوم بهذا الفهم المادي ، وسوف ينحدر الى الحضيض اذا ماقدر للمادية هذا المصير(١٣) • ودون ديالكتيك ستكون **النظرية المادية في المعرفة** ناقصة ، مشوهة، بل **مستحيلة** •

ان **الديالكتيك** بالنسبة لهيغل يتطابق مع الميتافيزيك • اما بالنسبة لنا فان **الديالكتيك** مبني على مذهب في**الطبيعة** •

ان **الفكرة المطلقة** بالنسبة لهيغل ـ اذا مااستخدمنا تعبير ماركس ـ هي القوة الخالقة للواقع • اما بالنسبة لنا نحن فليست الفكرة المطلقة الا تجريدا **للحركة** ، التي تعتبر **سبب كل اتحادات المادة وحالاتها** •

ان الفكر بالنسبة لهيغل يتقدم نتيجة كشف **التناقضات** وحلها ، هـذه التناقضات الحبيسة في المفاهيم • اما بالنسبة

---

* يقول السيد الحكيم ن ـ ج « اعتقد أن المادية والمنطق الديالكتيكي عنصران يمكن القول عنهما منطقيا انهما متضاربان » . (مجلة روسكوي بوغاتستوف عدد حزيران ص ٥٩) •

(١٣) أي أن الديالكتيك ينتهي اذا ما انتهت المادية • (المترجم)

لمذهبنا ـ **المادية** ـ فان التناقضات المتجسدة في مفاهيم ليست سوى انعكاسات ، سوى **ترجمات الى لغة الفكر** ، ومن هذه التناقضات مايتجسد في ظواهر ترجع الى الطبيعة التناقضية لأساسها المشترك ، أي الحركة .

ان مجرى الاشياء بالنسبة لهيغل يحدده مجرى الافكار . أما بالنسبة لنا فان مجرى الافكار يفسره مجرى **الاشياء** ، ومجرى **الفكر** يحدده **مجرى** الحياة .

لقد أقامت المادية الديالكتيك « على قدميه » ، ولذلك ابعدت عنه حجاب الصوفية الذي غلفه به هيغل . وبهذا العمل كشفت المادية عن **الجانب الثوري** للمادية (١٤) .

يقول ماركس « ان الديالكتيك بشكله الصوفي أصبح الطراز السائد في المانيا لأنه يطري ويمجد الاشياء القائمة . اما في شكله العقلي فانه فضيحة وقباحة في نظر الطبقة الحاكمة ومفكريها المذهبيين ، لأنه يتضمن في ذاته استيعاب الحالة القائمة للاشياء وتمييزها المؤكد ، ولانه يتضمن في الوقت نفسه تلك الحالة وتهديمها الحتمي ، لأن الديالكتيك يرى ان أي شكل اجتماعي متطور عبارة عن حركة دفاقة ، ولذلك يأخذ في الحسبان طبيعة هذا الشكل الانتقالية على انها ليست أكثر من وجود موقوت ، ولأن الديالكتيك لايترك شيئا يغشه ، وهو في جوهره نقدي وثوري* » .

---

(١٤) هكذا في الترجمة الانكليزية . واظن ان الجملة يجب ان تكون على الوجه التالي : كشفت المادية عن الجانب الثوري للديالكتيك (المترجم)

* انظر مقدمة الطبعة المانية الثانية للمجلد الاول من رأس المال .

ان من طبيعة الامور ان الديالكتيك المادي مشينا وكريها بالنسبة للبرجوازية التي تشربت بروح الرجعية ، ولكن الواقع انه حتى الناس الذين يتعاطفون مع الحركة الثورية يصدون احيانا عن الديالكتيك المادي ، وهذا امر مضحك جدا ومحزن جدا . انه ذروة التفاهة .

وبعد كل شيء ليس لي الا ان اهز كتفي ازدراء بهذا الاختلاق العجيب الذي طلع به السيد ن ـ ج الذي الصق بي مبدأ « التنظيم المزدوج للعقل » ، هذا المبدأ الذي يشكل « مقدمة منطقية » يمكن ان تجعل « منطقنا الديالكتيكي قليل التصديق على الأقل* » .

ألا كم هو ـ في الحقيقة ـ بعيد المرمى ناقدنا المخاتل .

ونقطة اخرى استرعت انتباهنا . لقد عرفنا من قبل ان اوبريغ كان على حق ـ وقد كان محقا ايضا في أي مقياس ـ في طلبه من أولئك ان يفكروا باجابات محدودة عن أسئلة محدودة فيما اذا كان الموضوع المعين يمتلك خاصة معينة . ولكن لنفرض اننا فعلنا ذلك ، لا مع موضوع بسيط ، وانما مع موضوع مركب تتعارض وحداته تعارضا تاما مع بعضها ، ولذلك تتحد فيه خصائصه التي تعارض الواحدة الاخرى تعارضا تاما . فهل

---

* مجلة موسكويو بوغاتستوف ، عدد حزيران ص ٦٤ . سمى « بارمنيدس » تلامذة هيراكليت أثناء خصومته معهم الفلاسفة ذوي « الرأسين » الذين يرون الاشياء في الوقت نفسه في مظهرين ـ موجودة وغير موجودة . أن السيد ن ـ ج قدم كفرضية فلسفية ، شيئا كان بالنسبة لبارمنيدس قطعة من الجدل الانفعالي القارص ليس غير . فياله من تقدم « بمعونة الله » في فهم « القضايا الاولية » في الفلسفة .

يمكن تطبيق الطلب الذي قال به اوبرويغ في محاكمات أمثال هذا الموضوع ؟ لا . لايمكن تطبيقه . ان اوبرويغ الذي كان معارضاً الديالكتيك الهيغلي بشكل يشبه تماما معارضة ترندلنبرغ له ، يرى انه في مثل هذه الحالات يجب ان يتلاءم العقل مع قاعدة أخرى ، أي قاعدة تطابق المتضادات (Pvrincipium Coincidentia Oppositorum) ولكن الغالبية العظمى للظواهر التي تدخل ضمن نطاق العلوم الطبيعية والاجتماعية هي من بين « موضوعات » هذا النوع . ان الظواهر المتعارضة تعارضا تاما نراها متحدة من أبسط كرية من البروتوبلازم ، الى حياة أعظم المجتمعات تخلفا . وبالتالي ان مكانا مرموقا يجب ان يعزى للطريقة الديالكتيكية في حقل العلوم الاجتماعية والطبيعية . هذه الطريقة حققت بالفعل تقدما عظيما جدا منذ ان احتلت هذا المكان في تلك العلوم .

وربما رغب القارىء ان يعلم كيف نالت الطريقة الديالكتيكية هذه المكانة في علم الحياة . فعليه بالنسبة لهذه القضية ان يتذكر النزاع حول طبيعة **الانواع** ، النزاع الذي نشأ بظهور نظرية التحول (Transformation) . وقد كان داروين وانصاره من أصحاب الرأي القائل ان مختلف الانواع من الجنس الواحد للحيوانات نفسها او النباتات ليس شيئا آخر سوى نسل تطور تطورا مختلفا من الشكل البدائي نفسه . وطبقا لمبدأ الارتقاء ، نجد ان كل جنس من الصنف نفسه ينحدر ايضا من شكل واحد مشترك ، وينطبق الشيء نفسه على كل أصناف الطبقة الواحدة نفسها . وطبقا لوجهة النظر المعاكسة التي يعتنقها اعداء داروين ، نرى ان كل أنواع الحيوان والنباتات مستقلة ، ينفصل الواحد عن الآخر ، وليس سوى الافراد فقط الذين يرجعون الى الانواع الواحدة نفسها ، ينحدرون من شكل واحد مشترك . وقد صاغ المفهوم نفسه حول الانواع ليناوس الذي قال : «هناك عدة انواع ،

وهي لاتزال كما خلقها الكائن الاعلى في الاصل » . ان هذه وجهة نظر ميتافيزيكية خالصة ، لأنه من وجهة نظر الميتافيزيك نجد ان الاشياء والمفاهيم « منفصلة ، ويعتبر النوع قد تلا النوع الآخر دون أن يكون له أي صلة بين نوع وآخر ، كماان موضوعات البحث ثابتة صارمة قدمت مرة والى الابد* » (انجلز) .
وبالمقابل ، فان الديالكتيكي من جهة أخرى ، يعتبر الاشياءوالمفاهيم « في ترابطها الاساسي ، تناقضها ، في حركتها ، في نشأتها ونهايتها » اذا استعرنا لغة انجلز مرة ثانية . ومنذ عهد داروِن شقت وجهة النظر هذه طريقها في علم الحياة ، وستبقى دائما هناك ، مهما جرى في تطور العلوم من تعديلات على النظرية التحويلية (Transformation)

وحتى نقدر الاهمية العظمى للديالكتيك في **علم الاجتماع** ، يكفي أن نتذكر الطريقة التي تطورت فيها **الاشتراكية** من اشتراكية **خيالية** الى اشتراكية **علمية** .

لقد اعتنق الاشتراكيون الخياليون نظرة مجردة تجاه الطبيعة الانسانية ، واستخدموا صيغة «نعم هي نعم ، ولاهي لا » في حكمهم على الظواهر الاجتماعية . فتملك الثروة اما مفطور في الانسان أو غير مفطور ، والعائلة الواحدية اما انها ثابتة في الطبيعة البشرية أو غير ذلك ... وهلمجرا . ومادام الاشتراكيون يفترضون ان الطبيعة البشرية **ثابتة** ، فان من المفروض ان يتوقعوا انه من بين كل الانظمة الممكنة للهيئة الاجتماعية يجب ان يكون هناك نظام **أكثر** انسجاما مع تلك الطبيعة **من كل الانظمة** الاخرى . ولذلك يجري النضال لايجاد **أفضل الانظمة كلها** ، أي

---

* راجع « انتي دوهرنغ » لانجلز .

النظام الذي ينسجم مع الطبيعة البشرية . ان كل مؤسس مدرسة يظن انه **وقع على مثل هذا النظام** ، ان كل مؤسس مدرسة يفترض **يوتوبيا خاصة به** . وقدادخل ماركس الطريقةالديالكتيكية في الاقتصاد ، فقلبه الى **علم** ، ولقيت **الطوباوية** ضربتها المميتة . ولم يلجأ ماركس الى الطبيعة البشرية ؛ انه يعرف انه توجد هيئات اجتماعية **تتلاءم** أو **لاتتلاءم** مع هذه الطبيعة . ونجد في كتابه **بؤس الفلسفة** هذا اللوم الهام التالي الموجه لبرودون : « ان السيد برودون لا يعرف ان التاريخ كله ليس شيئا سوى استمرار تحول الطبيعة البشرية* » . وفي كتابه « رأس المال » يقول ان الانسان ، بعمله في المحيط به وتغييره لهذا العالم ، يغير في الوقت نفسه طبيعته الخاصة* . ان هذه وجهة نظر ديالكتيكية تلقي ضوءا جديدا على قضايا الحياة الاجتماعية . ردعنا نأخذ على سبيل المثال ، مسائل الملكية الخاصة . ان الخياليين كتبوا الكثير وتناقشوا فيما اذا كان من الواجب ان توجد الملكية الخاصة، أي فيما اذا كانت مطابقة للطبيعة البشرية. وقد أعطى ماركس لهذه المسألة صفتها الواضحة الملموسة . فطبقا لمذهبه نجد **ان اشكال الملكية ، وعلاقات التملك** ، انما يقررها تطور القوى المنتجة . فشكل نوعي ما يتطابق مع مرحلة معينة من مراحل تطور هذه القوى ؛ بينما شكل آخر يتطابق مع مرحلة اخرى . ولذلك ، لا يوجد ولا يمكن ان يوجد ، أي حل **مطلق** لأي شيء يكون في حالة سيولة وتغير ، « فتصبح الحكمة جنونا ، والبركة لعنة » .

قال هيغل « ان التناقض يؤدي الى التقدم » . وقد وجد

---

* بؤس الفلسفة باريس ١٨٩٦ ص ٢٠٤ .

العلم مصداقا اكيدا لهذا في **الصراع الطبقي** ، وان نسيان هذا يحول دون أي فهم لتطور الحياة الاجتماعية والروحية في المجتمع المنقسم الى **طبقات** .

ولكن لماذا سمي « منطق التناقض » ، الذي هو ، كما عرفنا من قبل ، انعكاس للعملية الابدية للحركة في الذهن البشري ، **بالديالكتيك** ؟ ولن ادخل هنا في بحث مسهب ، وانما اكتفي باقتباس ما يلي من كونو فيشر :

ان الحياة البشرية يمكن ان تقارن بالجدل (Dialogue) بمعنى اننا ، بتقدم السن والخبرة تتغير آراؤنا عن الناس والاشياء تغيرا تدريجيا ، تماما مثل آراء المحدثين الذين ينهمكون في مناقشة مثمرة وغنية بالافكار . وتقوم الخبرة بالضبط في التحول الضروري والقسري لآرائنا عن الحياة والعالم . وهذا هو السبب في أن هيغل عندما قارن مجرى تطور الوعي بمجرى تطور الاحاديث الفلسفية ، سمى ذلك ديالكتيكيا ، أو الحركة الديالكتيكية . وقد استخدم هذا المصطلح كل من افلاطون وأرسطو وكانت ، ومع كل واحد كان هذا المصطلح هاما ، ولكنه يختلف من واحد لآخر ولكنه لم يحظ في أي نظام فلسفي بالاهمية الكبرى التي حظي بها في النظام الهيغلي الفلسفي* » .

---

* كونو فيشر في كتابه عن هيغل ص ٣٠٣ طبع في هيلدبرغ عام ١٩٠١ .

الفهرس

وافقت وزارة الاعلام ـ مديرية الرقابة على طبع . وتداول هذا الكتاب تحت رقم ٤٦١٥

يعتبر جيورجي بليخانوف (١٨٥٦ ـ ١٩١٨) من ألمع تلامذة ماركس وانجلز ، وأحد كبار مؤسسي الماركسية الروسية في المجالين النظري والنضالي على حد سواء . ولقد بذل بليخانوف جهودا كبيرة في شرح النظرية الماركسية ، سواء في ميدان المادية الجدلية أم في ميدان المادية التاريخية ، وفي الوقت نفسه في دحض النظريات التحريفية لأولئك المنظرين الذين كانوا يزعمون « تصحيح » الماركسية و « إكمالها » ، بدءا من برنشتاين الالماني وانتهاء بستروفه الروسي . ولذا فقد كان لينين يوصي بقراءة مؤلفات بليخانوف الفلسفية على اعتبارها « وجيزاً الزامياً للشيوعية » .

وإن « القضايا الاساسية للماركسية » الذي نضعه اليوم بين أيدي القراء العرب هو من أشهر مؤلفات بليخانوف الفلسفية ، وقد لعب دورا كبيرا في تثقيف الماركسيين الروس الاوائل ، ونرجو أن يجني منه الماركسيون العرب نفس الفائدة .

التوزيع في الأقطار العربية
دار دمشق ـ دمشق ـ شارع بورسعيد ☎ ١١١٠٤٨ ١١١٠٢٢

الثمن ٣٠٠ ق.ل